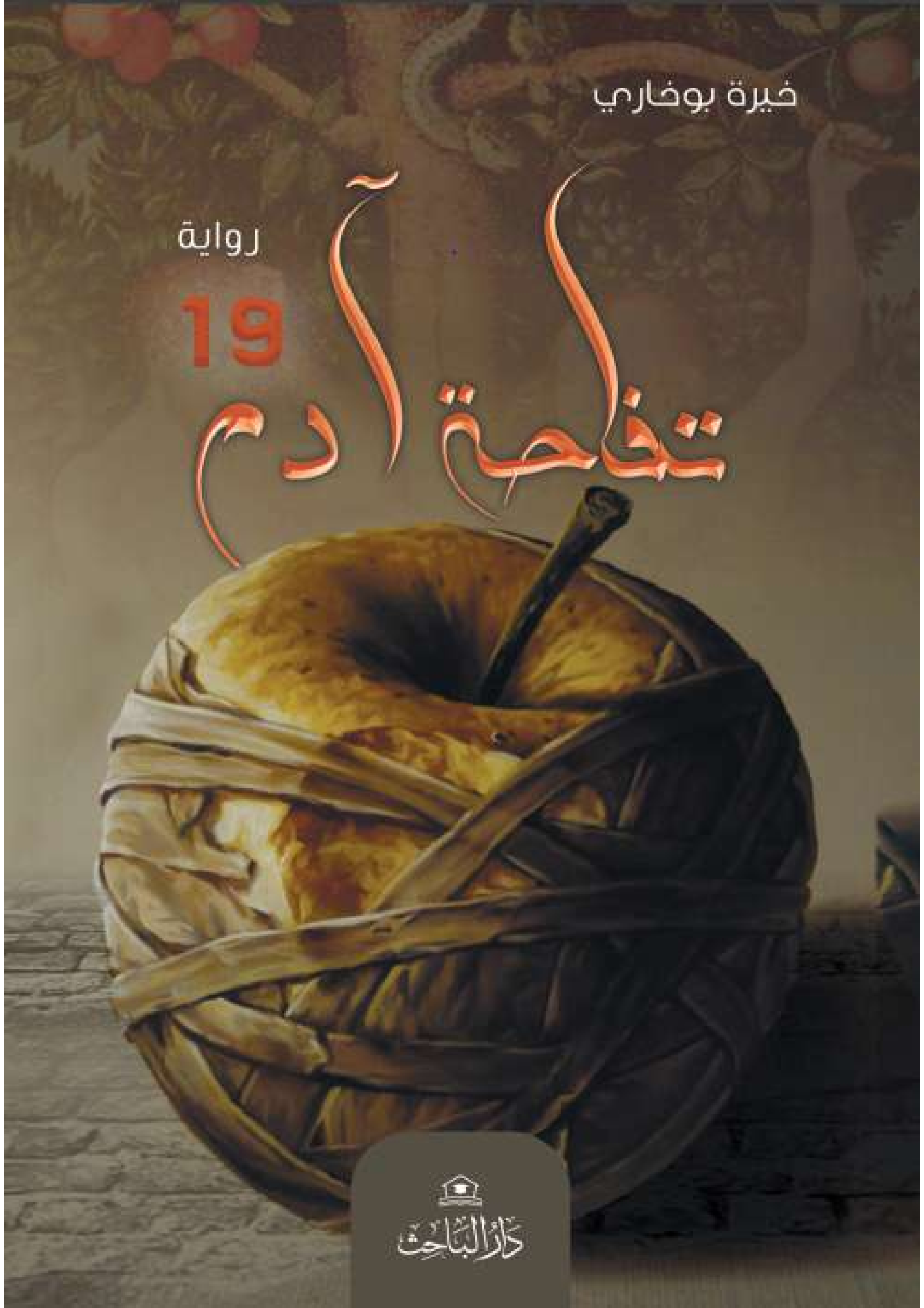
خيرة بوخاري

تفاحة آدم 19

رواية



دار الباحث

19- تُفَاحَةُ آدَمَ

رواية

بسم الله الرحمن الرحيم

تُفَاحَةُ آدَم-19

رواية

تأليف:

خيرة بوخاري

الطبعة الأولى 2022

دار الباحث

تُفَادَةُ اَدَم-19
تأليف: خيرة بوخاري
الطبعة الأولى 2022**م**
رقم الإيداع: جانفي 2022 **م**
ر.د.م.ك:978-9931-748-64-9

حقوق الطبع محفوظة

دار الباحث

دار الباحــث للنشر والإشهار
برج بوعريريج – الجزائر .
الهاتف/ الفاكس: 874 816 035(+213)
المحمول: 776 0674907(+213)
البريد الإلكتروني: darelbahith@gmail.com

حقوق الطبع محفوظة

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه أو استنساخه أو نقله كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة الكترونية أو آلية بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

Copyright : all rights reserved. No part this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء:

إلى كُلِّ مُغتربي الوطنِ العربي الذين عانوا الويلات في ظلِّ الوباء

إلى الذينَ اختنقُوا تحتَ وطأةِ أجنحةِ الخُفافيش...

إلى الّذين رحلوا دون وداعٍ، دون لمسة أحباب، دون عناق أولاد!

إلى الذّين لا يدركون نعمة التنفّس المجاني طول الحياة...

إلى الذين صارعوا شبح 2020 من أجل شراء جرعة أكسجين بكنوز الدّنيا ولم يحظوا بها!

إلى أصحاب الخوذ البيضاء في كلِّ مكان، يموتون ليحيا الآخرون.. مفارقة عجيبة!

إلى الّذين توقّفوا عن أعمالهم بسبب الوباء... وهم على أمل العودة...

إلى المغتربين الذّين تجرّعوا ألم الغربة... وهم كثرة...

إلى البراءة التي قالت يوما: ليتَ الفيروس يصاب بالفيروس فيموت ونرتاح جميعًا!

إلى شهداء وباء كوفيد-19...

اقتباسات في زمن الوباء

«جهّزُوا أنفسكُم لأنّكُم سَتفقدونَ الكثيرَ من أحبابكُم!»

رئيس الوزراء البريطاني بوريس جونسون

«مُكافحةُ انتشار فيروس كورونا هي التّحدّي الأكبر... وأرجوكم ابقوا في منازلكم»

المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل

«نَحنُ في حربٍ ضدّ كورونا والأزمة لا تزال في بِدايتِهَا»

الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون

«العَالمُ في حالةِ حربٍ مع عدوٍّ خفيٍّ... وسننتصرُ»

الرئيس الأمريكي دونالد ترامب

«نخوضُ معركةً خطيرةً أمام فيروسٍ شيطانيٍّ»

رئيس وزراء انجلترا

«نواجهُ حربًا شرسةً... والحكومةُ وحدهَا لن تنتصرَ»

رئيس الوزراء الياباني شينزو آبي

«جائحةُ كوفيد-19 جند مِن جنودِ الله»

العالم العربي

«ليتَ كُورونا يُصابُ بفيروس كورونَا فيموتُ ونرتاحُ جميعًا»

طفل صغير

مَأدبَةُ الطَّعَام

- مَا أروعهَا من مأدبةٍ!

أسَالتْ لُعابَ العالمِ بأسرِهِ، حَوْلهَا الحُوريَّات يُمرّغنَ أجسادهنَّ، يتمايلنَ يمينًا وشمالاً؛ كأنَّ الشَّمس أرسلت خيوطها عبر شُعورِهنَّ، فتَاهَ البصرُ وما أبصروا أنَّ المأدبةَ دُون غطاءٍ، تتطايرُ شُعيراتهنَّ هنا وهناك، لا يدركها إلاَّ من زاغت أبصارهم من الرّجال، عيونُهُم على المائدة القادمة من الشَّرقِ! تتركُكَ فارهًا فاك لمنظرِها!

- أنسيتَ أيُّها الإنسان أن تتنفّس من أنفكَ؟ أم أنّ الهواء ضلّ طريقهُ إليك! فأصبح يخرجُ من فمكَ المفتوح على مصراعيهِ... هكذا أنا وهكذا هم، نتساءل ونثرثرُ:

- أتراهَا مائدة نزلتْ من السَّماء؟ ليس فيها غير تفاحة آدم-19، هل وصلنا للخطيئة 19 ولم نشعُر؟

- بسُؤالِ مَنْ؟ وبذنبِ من؟ أيُّ قوم؟

- أهُم قوم موسى الذينَ لم يصبِرُوا على طعامٍ واحد؟ فاشتهوا كلّ نبات الأرض... فباءُوا بغضبٍ من الله؟

- أهُم قومٌ لبِسُوا عباءة التَّحضُّر والتَّطوّر حتّى ظنُّوا أنّهم لا يُقهرون؟ فجاءهم فيروس صغير لا يُرى بالعين المجرَّدة! ألم يدركوا بعد عظمة الخالق؟!

- أكلُوا ما حرّم وحرَّمُوا ما أحلّ!

إنَّها مائدةٌ تجمعُ بين الأعداء والأصدقاء، إنَّها مائدة الشّرق والغربِ، الكلُّ يتوقُ إليهَا، ألم تسمع حديثهم؟ دائما يقولون: الجنَّة وراء البحار، هذا كلامُ شبابهم، يتلقّفهُ رضَّعهم فيصدّقونهُ ويُفطمون عليه، لا يملكُون إلاّ ثمن زورق يبحرون بهِ ويجازفونَ بحياتهم لتذوُّقِ مائدة الشّرق هناكَ وراء البحار، مائدة تُفَّاحُها مختلفٌ ألوانهُ، يشتهيهِ عشَّاقُ الألوان، سيتذوَّقُ منها الجميع ويرمون برذاذهم بعدها، سافرُوا، قطعوا البحر لهفة ورغبةً من أجل مُلكٍ مراوغٍ، من أجل فتات خبز يستلُّ الرّوح، يمرّغها في التّراب ثمّ يرميهَا منهكة القوى...

هكذا هم الآن يدعوننا رغبًا ورهبًا...

جهَّزُوا المأدبةَ الكبيرة التي ليس كمثلها مأدبة منذ عهد البشر بالبشريَّة، أكثر من مئتينِ وثلاثين ملعقة وأكثر من مئتينِ وثلاثين

كوبًا وأكثر من مئتين وثلاثينَ صحنًا، ووزَّعُوهَا على خمس موائد، ونسوا المناديل، ونسوا أنّ تفاحة آدم-19 تكفي لهلع العالم بكاملهِ، إنّها تفاحة آدم الأولى لا تزالُ خطيئتُها تتوالد منها آلاف الخطايا، كُلَّما أخطأنا حضرتْ...

جلسُوا على مأدبة الشّرق والغرب والشَّمال والجنوب يتبادلون الحديث أناء اللَّيلِ وأطراف النَّهار، أصواتهم تتعالى، لا يسمعون إلاَّ ضحكاتهم الخارجة من الغابِ، لا يسمعون صراخ البرايا في قدسنا الصّامدة، لا يسمعون عويل الثّكالى في دمشق العريقَة، لا يسمعون انفجار المرافئ في بيروت الجَريحة، لا يسمعونَ صوت أمعاء المشرَّدين في اليمن أبدًا وهي تعزف سنفونية الفقر، لا ينظرون لطوفان نهر النِّيل في الخرطوم حين أغرق البيوت، لا ينظرُون إلاَّ لموائد الطَّعام وأكواب النّبيذ، وقبل أن يجلسُوا أُعدّ لهم المتّكأ الذي لا يجلسُ عليهِ إلاّ رجالُ المالِ والأعمال، ثمَّ قيل:

- اجلسُوا على مائدةِ الطَّمعِ والغُرور، اجلسُوا على مائدةِ الاستعمارِ والاستبدادِ، اجلسُوا على مائدةِ القويُّ يأكلُ الضَّعيف، اجلسُوا على مائدةٍ لحمُهَا بحرٌ ميّتٌ وأبيضٌ متوسط.

فطمعُهُم بكلِّ شيء أفقدهُم كلّ شيء حتّى راحة البال. وقيل لشبح 2020: ادخُل عليهم، رأوهُ ولم يبصروهُ، يحملُ بين يديهِ سبع حبَّاتٍ من التّفاحِ. قيل: كُلُوا!

قالوا: نسيتَ السِّكين، كيف نقطّع التُّفاح دون سكّين؟

قيل: قطّعوهُ بأسنانكُم، واتركُوا السِّكين فهو حادّ على أيديكم، لم يفقهوا شيئًا!

حمل الكلُّ حبّة التّفاح، قضمَ الأوّلُ حبّة التّفاح من شرق آسيا قضمةً واحدة ولم يتوقّف، ثمّ تلاهُ الآخر من قارة أمريكا والآخر من أوروبا وآخر قضمة كانت من أفريقيا، أخذ الجميعُ نصيبهُ من حبَّةِ التّفاح وبينهم درجات التقدّم والتأخُّر ترسمُ منحنياتها على سُلم الجهلِ والآخر على سلم العِلم، وما إن تجاوزت الحُلقومَ حتَّى شعرُوا بِضيق في التّنفّس، توقَّفوا ولم يظهِروا الألم لبعضهم البعض، كتمُوهُ حتَّى بدت لهم سوءاتهم، وخُسِفَ عليهِم من ورقِ الدُّنيَا، فُتحَ الباب وتفرَّق الأحباب على أمل اللّقاء، وما إن وصل كلّ رقم لبابِ غرفتهِ حتّى أخذ يُخرج ما مرّ عبر حَلقِهِ من غلٍّ وتزييف، وينثرهُ هنا وهناكَ، والمرآة تكشف صور العالم الهارب من حقيقتهِ نحو مستقبلٍ مجهول!

كأنّهُ يرسم مشهدًا من مشاهدِ الفراش المبثوث، الموتى في كلِّ مكان!

تاقَ الأصحابُ والأحبابُ إلى أوطانهم، عادوا من الجنّة التي اعتقدُوها سابقًا وراء البحار، فحضنونا حُضنَ الوداع وقبّلونا قبلة الموتِ القادمِ من هناكَ، نسَوا أنّهم أكلوا من تفاحة آدم-19، ليس واحدا أو اثنان، بل العالم بأكمله، كانت هداياهم على غير العادة! أحضروا لنا الموتَ في قارورة العطر، فرحنا بهَا وأخذنا نتفاخر بمسمَّياتهَا، وأنواعهَا وغلاء أثمانها، نستنشقُ منها صباحًا فنُزفُّ إلى غرف الإنعاش مساءً، هلعٌ كبير بيننا، نتساءلُ: ما الذي حلَّ بنا؟!

-ما بالُ عطركُم اليوم أصبح الموت عنوانهُ؟

- قلنا: نختارُ علبة الشُّكولاتة لعلّ وعسى، وما إن لمسناهَا حتّى أخذتْ أنفاسنا تروحُ وتجيء وأقفاصُنا الصّدريّة تصعدُ أعلاها وتنخفِض، ازددنا هلعًا ورعبًا، كيف بهدايا الأحباب والأصحاب تحمل لنا الموت من وراء البحار؟

... أترانَا أكلنا من تفاحة آدم جميعًا؟

- أترانا استنشقنا نكهتها؟ لعلَّ هذا ما حدث لنا فأصبح وباء كوفيد-19 يُطاردنا في كلّ أصقاع العالم. نركضُ وهو يجري وراءنا، يسبقنا بخطوات! أصبح هو العدّاء في الألمبياد لا نحن!

-جاء هذا الفيروس دون سابق إنذار ليُوقظ الضَّمائر الميّتة التي لا تعرف من الحياة إلاّ العيش كآلة حديديّة، جُرّدت من مشاعر الإنسانيّة، فلولا الرُّوح الموجودة بين الثّنايا لقُلنا إنسان آليّ، أسطوانة تشتغل، لا تستهِينُوا بالرُّوبوت الذي يأخذ مكاننا على أقل تقدير في حلول 2030، سيقوم بأعمالنا وبأحسن وجهٍ، سيُجري لنا العمليّات داخل المستشفيات وسيجعلنا كُسالى، هل ستضعونَ أجسادكم بين يدي روبوت؟ أو لعلّهُ سيحاكم الشَّبح معكم، فمحكمة التّاريخ جاهزة، تسجِّل للعالم عثراته وانتصاراته، هنَّاتهِ ونزواته، غزواته ومستعمراته، والظّالم والمظلوم كلاهما مستدعى إلى أجل غير مُسمّى، الكلُّ سيُحضِر شهودهُ، لكن شهود كوفيد-19 فاجأوا الجميع! قد ملأوا المكان ببِحارهِ، فكم من غريق نطق؟ وكم من لاجئ توسَّل؟ حضرت طبيعتهِ وجُثثهِ وحروبهِ، محاكمة سيحضرها جميعنا فكلُّنا معني، وستحضر **ماريا** وزوجها إلياس العالق هناك وراء البحار

في إسبانيا وسيحضر صديقه السّوداني محمّد عثمان وصديقهما الإيطالي ماميدو وأختها سيدرا العالقة بالأردن. ستذكّرُ **ماريا** الجميع بموعدها، ولكنّها قبل ذلك ستدعوهم لمأدبة الطّعام الكبرى التي سيأكل منها كلّ البشر، يلتفُّ حولها الجميع ليأكلوا جزءًا من ذكائهم، وجزءًا من غبائهم، وجزءًا من دهائهم، ثمّ ينثروا عطستهم الكبرى على أنفاس البشر...

ها هي **ماريا** تتّصلُ بزوجهَا وتدعوهُ لمأدبةِ الطَّعام، فيقول لها:

- أنا مدعوٌّ قبل أن تستدعينني أنتِ، فذُهلت ماريا! ثمّ قالت:

- من استدعاكَ؟ فقال: ألستُ ابن آدم وحواء؟ ألسنا نعيش في كوكبٍ واحدٍ؟ ألم نأكل من التّفاحة نفسها؟ وعطسنا عطسة واحدة!

- أكلنا وأكلنا، لكنّنا لم نشعر بالتّخمة لحدّ الآن...

- لكنّنا هذه المرّة بلغنا تفاحة آدم-19؟ فهلاَّ اعتبرنا؟!

- لكنَّني لا زلت أتساءلُ عن المأدبة، أهيَ حيوانيّة أم نباتيّة؟ فأنا لا أشتهي لحوم الخنازير، أخاف من إنفلونزا الخنازير، ولا أشتهي طائر الخفّاش، أخاف إنفلونزا الخفافيش...

- أيعقل أن تعرف مأدبة أحدهم إذا دعاك مُسبقًا؟

- كلاّ؛ لا يهمّ ذلك الآن، فجميعنا يحبُّ دعوات الغذاء والعشاء، أ يمكنُ أن نستدعيَ أهلنَا؟

- استدعِ أصدقاءكَ ليحضرُوا المأدبةَ معنَا!

- استدعِي أنتِ أختك سِيدْرَا!

- استدعِ أنتَ الأطفال!

- أيحضرُ الأطفالُ أيضا؟

- استدعِي أنتِ النِّساء!

- أيحضرُ النِّساء أيضًا؟

- استدعِ أنتَ الرِّجال!

-أيحضرُ الرِّجالُ أيضًا؟

- استدعِي أنتِ العجائز!

- حتَّى العجائز يحضرْن؟

- استدعِ عصَا موسى لتُحضر كلّ الحيوانات!

سيحضر الجميع إذن! لا مفرّ...

نعم، سيحضر كلّ موجود على هذه الأرض! هذا أمر عُجاب!

-لم أحضر مأدبة مثل هذه من قبل!

إنَّهَا مأدبةٌ فريدةٌ من نوعهَا، ولأوَّلِ مرّة يجتمعُ حولها العالم ليتساءلُوا: أهيَ نباتيّة المصدر أم حيوانيَّة؟ لا أحد يدري، فقد اجتمع العالم حولها ليوحِّدُوا تفكيرهم ضدَّ مجهول؟

- ضدّ مَنْ؟

ضِدَّ حربٍ بطلُها خرقَ كلّ قوانين المعاهدات والاتِّفاقيّات، اجتمعُوا ضدَّ فيروس صَغيرٍ ليُجهِزّوا خُطَّطهم الحربيَّة ضدَّ عدوٍّ لا يُرَى بالعينِ المجرّدة، أصغر من أن يُوصف، أكبرُ من أن يُستصغر، يحاربوه قبلَ أن يحاكموه، ولمَّا يحاكموهُ لن يجدوهُ، فمحكمةُ التّاريخ تفتحُ أبوابها على مصراعيها للقضايا الكُبرى ليدخل الشُّهود، أصبحت الأبوابُ ضيِّقة فضاقت الصُّدور واحتبست الأنفاس واختلجت.

الكلُّ يسأل ويحجزُ مكانًا: المحاكمةُ من يحضرهَا؟ وسنُحاكمُ من؟

سنحاكم كوفيد-19 وكلّ من أكل من تفاحة آدم-19. فتفاحة آدم لم تعد نباتيَّة المصدر بل أصبحت حيوانيّة! محاكمةٌ سيحضرها العالم كلّه بإنسهِ لا بجنّه، بحيواناته، بطبيعته، ببحاره وأشجاره، فجهّز نفسَك من وراءِ البحار يا إلياس لأنّك معنيٌّ.

- كم سنمكثُ يا **ماريا** في هذه المحاكمة حتّى أحضر معي زادِي؟

- لا تحضر معكَ شيئا فالمأدبة جاهزة سيأكل منها الجميع وتكفي الجميع...

****

أواخر كانون الأوّل 2019!

النَّهار يجرُّ ذيلهُ مُنسحبًا رافعًا راية استسلامهِ ليبتسم اللّيل من ثغر القمر وهو يُخفي شبحًا خلف ألوانهِ، والنُّجوم تتراقصُ هنا وهناك، وفي رمشةِ عين من زمن البشر الهارب منَّا رأيتُ شُهبًا تقذفُ هنا وهناك، لم أدرِ أهيَ شهبٌ من السّماء أم أنَّها مُفرقعات ليلةِ الميلاد، أضواء لمعت هنا وهناك فهاجمتها الحشرات الصّغيرة والتفّت حول مصابيح سماويّة، تُنذر بقدوم أمر غريب لم يسبق لي وأن عشتهُ أو رأيتهُ، وما هي إلاَّ لحظات قليلة حتَّى ادلهمَّت السَّماء ورمت الغيوم بظلالها السَّوداء، والبرق يضربُ بخيوطهِ يكاد أن يخطفَ أبصارنا، لحظات تحبسُ الأنفاس تنبئ بقدوم شبح، أصبح الأمر مُخيفًا ومرعبًا جدا بالنسبة لي، وجسمي هزيل لا يتحمَّل إنفلونزا الشِّتاء وأنا بالكاد أتنفَّس.

- أتظنُّون حقًّا أنَّها إنفلونزا؟ نزلة بردٍ عادية هذا العام!

- كلاَّ، لم يُشَمِّتني أصدقائي كلَّما عطستُ، بل أصبحوا يهربون منِّي. لم تعد نزلة البردِ عادية تجعلُ أنفي يسيل لمدّة أيّام، وما إن آخذ كوبَ ليمون محلَّى بعسل النَّحلِ حتّى أشفى تمامًا، أصبحت إنفلونزا شتاء 2020 وحشًا قاتلاً ووباءً مميتا، لا ندري

كيف وُلد؟ ما علمناه منهم كلّما ظهر وباء وضعوا له اسمًا كأنّهُ مولود ذكر، لكنَّهُ يُصبح أنثى ليلد سارس وكوفيد-19 ودلتا وأوميكرون وفيروسات أخرى قادمة تفاجئنا كلَّ قرنٍ من الزَّمن، إلى متى الرّعب يأتينا من هناك؟

-سترك يا رب!

-هل توافقني الرّأي أيُّها القارِئ! يا من عشتَ معي زمن وباء كورونا وهاجس تنقّلهِ كلَّما قبَّلت أحدهم أو لامستهُ، جهّز نفسكَ وحضِّر مشاعركَ؛ لأنَّكَ ستكون جُزءًا من هذه الرّواية التي توزَّعت أماكنها أينما انتشر الوباء، أمام البحار ووراء البحار، فكانت على أطراف البحر الميّت تحيا أحلامُنَا، وعلى ضفاف البحر الأبيض المتوسط تنتفضُ جوانبنا خوفًا من تفشّي كورونا كمّا يسمّيه البسطاء أو كوفيد-19 كما يسمّيه العلماء، فحتّى التّسميات ارتبكت بين ألسنتهم، فألجم لسانكَ بقطعة قماشٍ نسّميها الكِمامة لأنّك ستحضر معنا أثناء محاكمة الوباء، ستكون معنا شاهدًا على الحدث لأنّك عشتَهُ بزمنه الخارجي وزمنه الدَّاخلي، وأكلت من المائدة التي لم يسلم منها أحد، فحضّر رجاحة عقلك لأنّكَ ستكتشفُ معنا السرّ العظيم وراء

حلول وباء كوفيد-19، السرّ الذي يبحث عنهُ الجميع القاص والدَّاني، الكبير والصّغير، الكلّ يجرّبُ حظَّه في لعبةِ يناصيب خاسرة من البداية لأنّ كشف السرّ سيؤلمُ الجميع أكثر من الوباء، فالوباء جندي مخفي تحت أقفاص الصُّدور والسرّ يعرفهُ الجميع لكنّهُ يختبئ تحت وطأة الألسن، ها نحن في زمن الوباء مكبَّلو الأيدي لم يبقَ لنا إلاّ الألسن، نحلّل ونفسّر، أصبحنا كلُّنا صحفيّين!

ها نحن اليوم لم نعد نذهب للعزاء، فحتَّى الحزن تغيَّر لونهُ في زمن الوباءِ، أصبح البكاء صامتًا والصَّمت باكيًا، لم نعد نسمع أصوات عويل النّساء لفقدِ عزيز، ولم نعد نرى لطمهنَّ لوجوههنَّ، أُلغِيت مواعيد الأفراح والأعراس وأعلنت الجنائز دون حضور، لو كنت أعلم ذلك قبلاً لمَا اشتريت القفطان الحريريّ الذي يشبه لباس الأميرات في لونه الملكي، انتظرت دودة القزّ مدّة سنة لتجهيزه، ولمّا جهُز بقيَ ملفوفًا ينتظر أملا باسما كما ننتظرهُ نحنُ. لُفَّت ملابس الأعراس وفتحت طيّات الأكفان، ولا تزال الأسرار والألغاز في كهفها، فكُلَّمَا فتحنا لغزا وجدنَا ألغازًا أخرى، نحاول فكَّها لكي نبعث من خلالها نفَسنا الضَّائع. كُلَّما

تقدَّمنا نجدُ حبلاً يجذبنا إلى الوراء دون شعور منَّا، حبل معقود بالأوبئة التي نجهل مصيرنا في زمنها، فمن جنونِ البقرِ إلى جنون البشر، كلَّما فتحنا عقدة لتتّسع مضايقنا لم نفرح بها طويلاً؛ لأنَّنا سننشغل بفتح باقي العقد لنصل للعلبة السّوداء الضَّائعة عبر الهواء، هذه العلبة السَّوداء التي يختفي داخلها سرّ الوباء الذي حيَّرنا، لذلك سنربط أحزمتنا لنُسافر عبر هذه الحروف المؤرّخة لوباء كوفيد-19 الذي انتشر عبر العالم وروَّع عائلة ماريا وزوجها إلياس القابع هناك وراء البحار في إسبانيا، فرّقهما الوباء وجعل البحر سدًّا بينهُما، فحتَّى الطّبيبة ماريا تبحث عن السرِّ وراء هذا الوباء الذي لم يستطع حتَّى أشهر أطبَّاء العالم تشخيص دواء له.

سنحضر جميعنا لمحاكمة تاريخيّة بطلها كوفيد-19، وشهودها من بني البشر؛ من الرَّضيع إلى الشَّاب إلى الشَّيخ الذي ناهز قرنا من الزّمن، فكن جاهزًا أيُّها القارئ لأنَّك أنت من سيعلنُ الحكمَ على ضيفِ 2020 وتعلن البراءة لـ... فكلُّنا أكل من تفاحة آدم التي لا تزال عالقة أجزاؤها بحنجرة رجالنا، فكثيرنا لا يزالُ عالقًا خارج دياره، فاحكم بزمن 2020م وبمشاعر الفقد

والعزاء للأحباب وبشهود الجثَث وبإعلان حربٍ ضدّ جرثومةٍ لم نرَ لها من قبلُ سمّيّا، حربٌ بلا سلاح ودون عتادٍ، حرب فيها واحد خاسر والآخر رابح؛ لأنّ العدوّ المخفي قد يكون صديقا يحمل في ردائهِ آلاف رسائل الحبِّ، والصّديق قد يكون عدوًّا يحمل في جنباته كلّ رسائل الحقد...

سألقي عليكَ سبعة أقلامٍ وسبع ألواحٍ؛ لأنّنا سنكتبُ مع بعضنا البعض قدرا محتومًا كُتِب من قبل لكَ أنت أولي، والزّمن سبعٌ عجافُ، والحلم مروّعٌ استيقظنا عليه عام 2020 ننتظر لحدِّ الآن من يؤوّلهُ؟ ننتظر أحدنا أن يذكُر قصَّة يوسف عند ربّه، فيُؤوَّلُ الحلم ويعود يوسفُ لأهلهِ وتعود الحياة لمجراها الطَّبيعي، لكن؛ لا يمكننا أن ننسى ما حلّ بنا من جرَّاء هذا الوباء، فكثيرا ما أرّقتني وأرّقتكم الأسئلة:

هل يُمكِنُ لحدثٍ مثل هذَا تغيير عاداتنا وقلبِ موازينِ تفكيرنا؟ لا يُمكِنُ لحدثٍ بسيط تغيير حياتكَ أو نمط تَفكِيرك ما لَمْ يكُنْ حدثًا ينتزعُ جوارحكَ البارِدة المجمّدة منذ سنين في ثلاجة النِّسيان أو اللاَّمبالاة، إلاّ الحدث الذي يُشعِلُ لهيبَ مشاعرِك اتّجاه الذي وقع لك أنتَ خصيصًا أو من يربطك بهم الحبلُ

السّري... وأغلب هذه الأحداث لا تحدث إلاَّ في الحبِّ الشديد أو الفقدِ المروّع، كما حدث مع المغترب الجزائري إلياس ومحمّد عثمان السُّوداني وماميدو الإيطالي الذين حجزهم الوباء وراء البحار، فكان لهم نصيبٌ من الشَّوق للأهلِ والأحباب خاصّة ماريا زوجة إلياس التي بقيت في البلد وبقيَ هو هناك يناجي أملاً باسمًا وصبحًا مشرقًا ينبئه برحيل شبح الموت كوفيد-19.

إلياس وشبح الموت 2020...

رجلٌ بلاَ وطن، حالُ مغتربٍ رحل وترك وراءهُ حُدود الكفن، أمسيتُ في غربةٍ عاري الكتفين مهما ارتديت من أثواب غالية الثّمن، رجل دون قبر، دون تراب هو أنا. لم يعد طولي مترا وسبعينَ ذراعًا بل خمسًا وعشرين سنة انقضت وأنا أعيشُ في ديار الغربة، يأكُلني الحرمان من صوتِ أمّي التي تُوقِظني كلَّ صباح، وكلّما جلست بجانبها همست في أذني: "متّى تتزوّج؟" ليس بعد يا أمّي، فتضغط بإحكام على أذني وتقول: "احذر أن تجلب لي إسبانيّة، لا تضع حجابًا وتلبس قصيرا وتتبرّج كثيرا"، فطمأنتها: "لا تقلقي يا أمّي سأتزوّج امرأة عربيّة مثلك، تضعُ حجابا ولا تلبسُ قصيرا ولا تتبرّج كثيرا، هل هذا يرضيك؟"

ثمّ مازحتها بقولي: "لكن بشرط أن تكون جميلة مثل الإسبانيات"! ثمّ هربت فلحقت بي بخطواتٍ متثاقلة وهي تقول: "لا تزالُ مشاغبًا" وفي تلك اللّحظات أخذت أنفاسها تتردّدُ من هرولتها ورائي، فأجلستها وجلست معها لساعات وساعات، فأخذت تحدّثني عن ماريا وعن جمالها حتّى وعدتها بالقبول...

آهٍ؛ يحرقني الشَّوق إليها كلَّمَا أسدلَ اللَّيلُ ستارهُ، تشدُّني أمراسهُ من بين يديَّ ومن خلفِي ذكرياتٌ قرمزيَّةٌ يُحييهَا الشَّوقُ كلَّما انتصفَ القمر، ثمَّ يذرُ شوقي رمادًا، تطفئهُ أمواجُ البحر، أرتمي في لولبِهَا كلَّ مساءٍ، تُداعبني كأنّهَا تعرفني، فابن الأمواج لا يتيهُ عن البحر، يأسرنِي ما وراء الأمواج! ما وراء البِحار! لطالمَا أسرني تاريخُ بلاد الأندلس داخل قصر الحمراء بسلاسل ورقيَّة أكتبهَا كلَّ مساءٍ جوهرةً ضائعة، أتذوّقها بلحًا من نخلةِ الحنين لعبد الرَّحمان الدَّاخل وأمضغُ حزني كلَّما رأيتُ عقدنا الضَّائع، لا أدري لماذا لم أختر غيرهَا وُجهةً؟ لعلِّي أردت فتح الصُّندوق الأسود الضائع هناكَ، إنَّها إسبانيا، قبل خمسة وعشرين سنة في مطار الباهية وهران كنتُ أرقص فرحًا لأنّي سأسافرُ مع فرقة رقص فلكلوريّ، فأنا لا أجيدُ الرَّقص ولا الغناء لكنَّها كانت الطّريقة الوحيدة لأستطيع السّفر معهم بسهولة، لأعمل هناكَ وأجني مالاً بالعملة الصَّعبة، فقد كان أترابي يقولون جملة أصبحت شهيرة بين الشَّباب: "الجنَّة وراء البحار"، وفي قرارة نفسِي لم أكن أصدِّق هذه المقولة فلا جنَّة وراء البحار، لكنَّ شغف الشَّباب وهوسي بالمغامرة وفلسفتي دفعتني لأكتشف

ذلك وأغامر، لعلَّ الله يحدثُ أمرًا لم تكن لهُ سابقة في أذهاننا يُسقط هذه المقولة، أو لعلَّ فلسفتي ستسقط هذه المقولة بطريقة أرسطيّة أو سقراطيّة، أو رشدية أو سِينيّة، لستُ أدري! لعلَّ هذا ما دفعني للسَّفر واكتشاف ما وراء البحار.

وصلت محطَّة تفتيش ومراقبة الأوراق، تقدَّمت دون خوفٍ، طلبَ منّي الشّرطي جواز سفري، أدخلتُ يدي في جيبي وأخرجت الجواز وأعطيتهُ إيَّاهُ وقلبي ينبضُ خوفًا، فنظر إليَّ ثمَّ إلى جواز السّفر مرَّة ثانيّة، فأوجستُ خيفةً على خيفة، فحدث ما لم يكن في الحسبان وما لم يتوقَّعهُ أصدقائي، تركوني واقفًا على جنبٍ، ثمَّ مرَّروا كلّ أصدقائي وعيناي تروح وتجيء معهم، ثمَّ قال لي الشُّرطي: "تقدَّم"، أقبلتُ نحوهُ، قال: "إلياس أنت لم تؤدّ الخدمة العسكريّة"، جحظت عيناي، تسمَّرتُ في مكاني، تحطَّمت كلّ أحلامي التي بنيتها في تلكَ اللّحظة، وأخذت أندب حظِّي، ثمَّ ترجيتُ الشُّرطي بكلّ الكلمات الرّنّانة: "الله يحفظك، الله يعطيك ما تتمنَّى دعني أمرّ وأحضر لك ما تريد عند عودتي"، لكن هيهات هيهات أن يسمعني، تأسَّف أصدقائي لتخلُّفِي عنهم، فقد أرادوا

مُساعدتي لتحقيق حُلمي والسَّفر للبلد الذي سكنهُ أجدادي وفتحهُ طارق بن زياد...

رنَّ هاتف الشّرطي فردّ:

- "ألو، نعم"

وفي تلكَ اللّحظة كانت النَّافذة مفتوحة أخذتُ الجواز من يدهِ وقفزت منها مُسرعًا، أخذ الشّرطي يجري ورائي وأنا أركض مخافة أن يقبض عليَّ، ساعدني وزني الخفيف على الجريِ وساعدني بطنه السّمين على الهرب فلم يستطع مجاراتي لثقل وزنهِ، ركضتُ حتّى وجدتُ نفسي في الطّريق بعيدا عن المطار، وقفت وسط الطّريق فتوقّفت السَّيارة، نطق صاحبها ذو الأنف الحاد والنظرة الثّاقبة: "أنت مجنون! تنحَّ عن الطّريق"، فقلتُ لهُ: "حالتي مستعجلة" وترجيتهُ أن ينقلني، فحملني إلى وسط المدينة بقرب أحد المستشفيات ظنًّا منه أنَّني مريض، أخذ يسألني وأنا صامت، كأنّي لا أرى أحدا إلاّ ذاتي الضّائعة، ولا أسمع صوتًا إلاَّ صوت الشُّرطي "أنتَ لم تؤدّ الخدمة العسكريّة، عُدْ أدراجك وقم بواجبكَ اتّجاه وطنك"، عدتُ إلى منزل عائلتي مهمومًا متعبا كأنّي كنتُ أعمل وعدتُ مساءً وقد رفعت رايات

اللّيلِ لتعلن استسلامي للنَّوم ورفعتُ رايتي البيضاء لأوّل مرَّة، فعائلتي ليست على علمٍ بتخطيطي، أخذتُ أفكِّر وأفكِّر لأيَّامٍ ولياٍل: كيف أعبر؟ فالحلم بلغ معي ذروته لم أستطع التّراجع، أصبح هاجسي الوحيد هو السَّفر إلى إسبانيا، قرَّرتُ الذَّهاب إلى تونس؛ لأنّي كنت أذهب إليها دوما من أجل إحضار الملابس وأبيعها، فهوسي بالسَّفر فاق كلّ الحدود، لا أرسو على برٍّ أبدا، أذهب إلى المغرب وليبيا ومصر لأحضر الملابس وأبيعها، والسّودان التي يستهويني فيها الفول السّوداني المعروف عالميًّا. جعلتُ وُجهتي تونس، ذهبت برفقةٍ آمنة سنوات التّسعينات وخطر الطّريق يحدِّقُ بي، وصلت إلى تونس، عاودني هاجس السّفر، أخذ يؤرّق مضجعي أينما وليتُ وجهي أرى الجنَّة المزعومة وراء البحار، ولم أكن أدري أنّي سأحقِّقُ حلمي هناك، مكثت فيها مدّة شهور ثمَّ قرّرتُ السّفر من هناك، وكان ذلك هدفي. ركبتُ الطّائرة أوّل مرَّة، لم أشعر بدوار ولا خوفٍ، بل بمتعةٍ لا تشبهُها متعة، أخذت مضيفة الطّيران تردّد جملتها المسجّلة بكلِّ اللُّغات: "عزيزي المسافر دع الحزام مربوطًا ستحبط الطّائرة". حطّت الطَّائرة بالمطار، فتحت عقدة الحزام ومعها فتحت العقد التي كانت

أمامي، عيناي صارتا لا تصدِّقان ما حولهُما، هل أنا حقيقة في إسبانيا بعدما قطعت أحبال الأمل بالذَّهابِ إليهَا؟

وصلت إسبانيا وأنا صاحب السَّابع عشرة سنة دون حرفةٍ تُذكر، دون مستوًى تعليمي كبير، لا أفهم اللّغة الإسبانيَّة ما عدا كلمة Holà، لكن ما كان يشدُّني إليها حنين أجدادي، بل الثَّماني قرون لأندلسي. أوَّل ما فعلتهُ أخذت أبحث عن العرب في ذلكَ المكان لعلِّي أجد مساعدة أو إيجاد عملٍ أقتاتُ منه. عانيتُ الويلات أيَّامي الأولى وأنا أبحثُ عن الجنَّة التي وراء البحار فما وجدت جنَّة أبدا، نمت في السيَّارات القديمة المرميَّة آخر المدن، أسمعُ نباح الكلاب يسامرني في وحدتي وغربتي القاسيّة، مكثتُ على ذلك الحال مدَّة سنة وأنا أبحث عن ذاتي الضّائعة هناكَ، رغم الصِّعاب لم أتراجع عن حلمي أبدا ولو مرَّة، غيَّرتُ وُجهتي من «أليكونت alicante» إلى جزيرة وسط البحر تسمَّى «بالما دي مايوركا palma de mallorca»ومكثتُ بها أعمل مدّة عشرين سنة مرتاحًا أستمتعُ بجمال مناظرهَا، أتعايشُ مع أناسهَا الطَّيّبين، لا يؤذونكَ ما لم تؤذهم، لا يظلمونك أبدا. شعرتُ أنّ تعاليم ديننا تطبّقُ هناك دون علمٍ منهم على عكسنا نحنُ، تجد الفتاة

الشَّقراء الحسناء ذات العشرين ربيعًا تعمل منظّفة الشّوارع، تحمل القمامة وتضعها في مكانها دون انتقاصٍ منها لعملها لا تسمح لأحدٍ ولو برمي لبانٍ، فقد حدث ذات مرّة لمّا رمى أحد أصدقائي قطعة لبانٍ صغيرة في الطّريق دون مبالاة منه، ولمّا عاد مساءً إلى منزلهِ وجد استدعاءً من الشُّرطة ينتظره في صندوق البريد وسط الباب، ذهب في اليوم الموالي لمركز الشّرطة قال لهم: "أنا لم أفعل شيئًا" فسألته الشّرطيّة: "هل أنت متأكّد؟" قال: "أنا متأكّد أنّي لم أفعل شيئا"، أرتهُ الفيديو الذي التقطتهُ عدسات الكاميرا فجحظت عيناه، قالت: "من هذا؟" فقال:

"هذا أنا قطعتُ الطّريق ولم أفعل شيئًا"، قالت:

- أنت مجرم في حقّ الخلق، انظر ماذا رميت من فمك؟

هذا الذي رميته يلتقطهُ الطَّير فيغلقُ لهُ فمهُ فيموت، أهذه ليست جريمة؟

تعجّبت من تعاملاتهم حتّى مع الحيوان! تذكّرتُ هذه الحادثة وأنا أنظر لتلك الفتاة التي كلّما مررت بها تحييك وهي تبتسم كأنَّ

الرّمان ينفجر من وجنتيها، فقلتُ في نفسي: "عجبا، نحن في بلادنا تجده شابا مفتول العضلات لو عرضت عليه مثل هذا العمل لتكبّر عليهِ في حين نجدهم لا يتكبّرون على أيّ عمل مهما كان". عشتُ مع الإسبانيين سنوات عديدة حتّى إنّي أشعر أنّي منهم، أكتشفُ عاداتهم التي تختلف عن عاداتنا. أذكر مرّة بعد زيارتي الأولى لأهلي ونحن جلوس على صينيَّة الشَّاي المنعنع ومعه حبّات الحلوى التّقليديَّة التي اشتقتُ إليها لمّا سألتني أمّي: "هل صحيح أنّهم يشربون الخمر كما نشرب الماء؟" فضحكت وقلتُ: "أتظنّين أنَّ الخمر موجود فقط وراء البحار؟" فشدّتني من أذني وأنا على وشك الزَّواج وقالت على نيَّتها: "نحن عندنا عنب وليس خمر" فضحكتُ للمرَّة الثّانيّة، فتركتْ أذني اليمنى التي كانت بجانبها وشدَّتني من أذني اليسرى بقوَّة وقالت: "احذر أن تحضر لي واحدة منهم، أنا من ستختار لك عروسًا من البلد" فابتسمتُ وقبَّلتها من جبينها وقلت لها: "حاضر" حتّى تطمئنَّ فقد حذّرتني من قبل، ثمَّ وقفت أمامي وقالت: "لقد اخترتُ لكَ عروسًا" فضحكت وقلت لأمّي: "أتشبهُ الإسبانيات؟" فقالت: "وهل تظنُّ أنّي سأحضر لك واحدة تلبس نصف تنورة، تظهر سيقانها؟"، فضحكت للمرَّة

الرَّابعة وقلتُ لأمِّي: "افعلي ما تشائين"، فاختارت لي فتاة جميلة اسمها ماريا تزوجتهَا وسافرنا في ذلك الشَّهر.

مكثنا سنة ثمّ عادت لزيارة أهلها بالبلد ولعملها فهي طبيبة للأمراض الصَّدريّة ولم تتعوَّد الغربة ولا ترك مرضاها. وبقيت أنا وحيدا في إسبانيا أتجرَّعُ آلام الغربة بكلِّ ألوانها إلى أن وصلتُ إلى لونها الأسود، لون الشَّبح الذي أسقط مقولة "الجنّة وراء البحار" وجعل مكانها "الجحيم وراء البحار"، شبحٌ لم يتوّقعهُ المنجِّمون ولم تستطع القوى العظمى هزيمته ولم يرهُ المبصرون، فجنود الله لا يراها إلاّ القلّة القليلون، إنّه شبح يظهرُ كلّ مائة عام يرعب العالم كأنّه الغول الذي تخوّف بهِ العرب أبناءها منذ الصّغر ولم يره أحدهم من قبل، فقط يصفونه بأبشع الأوصاف المخيفة.

حتّى وإن وصف العرب الغولة بأبشع الأوصاف فأنا لن أصفَ شبح 2020 كما يصِفُهُ الواصفُون؛ لأنّهُ لن يكون الحسناء الجميلة التي يرغبُهَا الجميعُ، ولن يكونَ لاعب كرة مشهور يتصوَّر معه المعجبون، ولن يكون كرة محبوبة تتقاذفهَا الأرجل فتلحقُها الأعين من مكانٍ إلى مكان، فلا هو صُورة تلتقطها عينكَ المجرّدة

ولا عدسة تصوير مُتطوّرة، لا هو أسطورة ولا هو شبحٌ كما وصفناهُ، فقد فاق الاثنين في الوصفِ. يختفي وراء أنفاسٍ تتثاقلُ وراء أقفاصِ الصّدور، لا تستطيع مسكهُ بقبضة يدك، كأنّهُ زئبقُ يتملصُّ من قبضة اليدِ لينتقلَ من مكانٍ إلى آخر، مراوغٌ ماهرٌ يتلاعب بالأعصابِ، كلَّما ظنَّ صاحب المئزر الأبيض أنّهُ أمسك به حتَّى يجدهُ قد أمسكَ هو بالآلاف، دون أن تبصرَهُ يعلقُ بيدك وبجلدك لينفذ في خفيَّةٍ عبر الفم أو الأنف، كيف أمكنَهُ فعل كلِّ ذلك؟

- غلقُ البُيُوت!

- غلقُ المعابدِ!

- غلقُ الحاناتِ!

- غلقُ النَّوادي!

- غلقُ الملاهي!

غلّق عليهم الأبواب ونسوا أن يغلقوا الملاهي الموجودة في هواتفهم، تمرّ عليهم الصُّور الكاشفة رغم أنوفهم تجلب لهم اللّعنة كلّما قلبُّوا أخبارهم ذاتَ اليمين وذاتَ الشّمال، ولعلّ هذا

الأمر أخطر من فيروس كورونا! ها قد توالت الفيروسات في القرن الواحد والعشرين، فأصبح هناك فيروس يصيب العين فجأة ودون سابق إنذار كلّما باغتتك صورة أو مشهد مخلٍّ للحياة، وفيروس يصيب القلوب فيجعل المشاعر للحقد والغلّ والحسد، حتّى إنّي في بعض الأحيان أرمي بهاتفي بعيدا عنّي؛ لأنّي أشعر أنّه يسلب طاقتي الإيجابية بذبذباته الصوتيّة، وأسأل نفسي دومًا: "هل سيصيبنا فيروس جديد من هواتفنا الذكيّة؟" لربّما سيكون هذا في المستقبل القريب! فحتّى هواتفنا أزعجت هدوء المساجد التي ارتاحت من وشوشتنا ومن أخبار دنيانا التي نلوكُهَا قبل كلّ صلاة! غلقت مساجدنا، اشتاق الكلّ للنّفحات الربانية، للخطوات الثّابتة...

أصبح الكلُّ في زمن الوباء يكتب وصيَّتهُ الأخيرة ويده ترتجفُ من شبح الموت القادم من الصِّين، يكتبها الشّاب بين الأرق والإرهاق، والخوفُ يتخبّطه فبعضهم قتلهُ الخوف لا الوباء. ويكتبها العجوز كلَّما عسعس اللّيل ورمى بردائه على أكتاف ذوي الألباب، فقد اختلفت بينهم الفرص، فالوباء لا يعرف صغيرًا ولا كبيرًا، لقد كذبوا علينا لمّا أخبرونا أنّهُ يصيب كبار السنّ فقط

لأنّ مناعتهم ضعيفة، لكن وباء كورونا لم يكذب فقد أصاب أطباء في سنّ الزهور وأودى بحياتهم كما أودى بصديقة زوجتي طبيبتنا وفاء بوديسة، رحمك الله يا أختي وفاء، كم كان فقدك صعبًا؟ وكم كانت كذبتهم أصعب؟ فوباء كورونا أخذ الصّغير والكبير، لا يعرفُ لونًا ولا جنسًا، لا غنيًّا ولا فقيرًا، بل أرواحا يستلُّهَا دون تمييز بين أبيض ولا أسود، ولا غنيٍّ ولا فقير، لا زلت أتساءل وأنا في غربتي أحترق شوقًا وأرتجفُ خوفًا:

-كيف أمكنهُ فعلُ ذلكَ وهو لا يُرى بالعين المجرّدة؟

ماريا وفاجعة كورونا!

أحبّائِي في كلِّ مكان؛ أصدقكُم القول في بداية الأمر لمّا انتشر الوباء في الصِّين لم أكن أصدِّق!

- تعرفون لماذا؟

- لأنّي لم أعاين حالة بنفسي، ولم أسمع من قبلُ عن هذا الوباء إلاَّ ما قرأتهُ عن مرض السّارس الذي بقي في بلده عام 2003 ولم ينتشر في العالم بأسره. أخذت الأمر بعفويَّة، ليس لأنِّي طبيبة بل لأنّي كنت على يقين أنَّ الوباء مجرَّد كائن صغير، لا حول له ولا قوّة، وأنّ كلّ ما أوتينا من العلم إلاَّ قليلا، وإنَّما لأجَلِ الإنسان حتميّة لا بدّ أن يدركها راغبًا أم رافضا، فللقدر أنفاس تروحُ وتجيء لا ندرك من تتوقَّفُ عنده؟ فتسقط ورقته على حين غرَّة ونحن في فرح نرقص لاهية قلوبنا، نرتدي ملابس تسرق من لون الشّمس لمعانها، أو ننتقل من حزن إلى حزن لا ندري طريق نهايتهِ، فقد أصبح اللّون الأسود سؤددا لفقد أحبابنا حتّى إنَّ كمَّاماتنا أصبحت سوداء تخفي هالاتنا السَّوداء. هكذا فجعنا الوباء الذي أُمِر بأخذِ الأرواح تباعًا كأنّها عناقيد تصّعدُ إلى السَّماء، ما كان منها طيّبا بلغ سدرة منتهاه، وما كان منها خبيثا بلغ شجرته، أصبح

الوباء تذكرة سفر إمّا للسَّماء أو للأرض، فهو يسافر من مكان إلى مكان دون عناء يُذكر، نحملهُ في حقائبنا وفي قارورات العطر التي نحضرهَا هدية لأحبابنا، يرشونها موتًا على معاطفهم فرحين بما آتيناهم، وما آتيناهم إلاَّ بالموت القادم من الشَّرق، حملناهُ في مشاعرنا المزيّفة وفي صدورنا المملوءة بالجشع.

أتظنُّون أنَّنا نستحقُّ ذلك كما يدَّعي البعض؟ سنعرفُ ذلك لا ريب لمّا نحاكم وباء كوفيد-19، فحتّى أنا سأكون حاضرةً وسأحضرُ معي مرضاي الذين باغتهم دون سابق إنذار، هذا الوباء الذي لا أريد أن أتكلَّم عنهُ ولا أن أترافع لهُ في قضيَّتهِ التي تجاوزت سنتين ولا ندري متى يغادرنا إلى غير رجعة، هذا إذا لم يُولِّد لنا فيروسات أخرى لم نسمع عنها من قبل، يتحوّر ويتحوّر، يطير عبر الهواء، عبر الطائرات، سيعاودُ المجيء بموجات جديدة، ترفع ضغطنا، لكنّي سأتركُ لهُ الكلمة داخل محكمةِ التّاريخ التي لا زالت تُسجِّلُ وتُسجِّلُ له ملايين العبرات وملايين العثرات، فلا هي استطاعت إدانتَهُ ولا هو استطاع المُضيَ إلى غير رجعةٍ...

فقبل اكتشافِ اللّقاح سنتركُ له الفرصةَ لإحضار شُهوده على طاولة الحكم ليشهدوا معهُ أو ضدَّهُ، لقد أحضر معهُ الشُّهود من كلِّ الأطيافِ وأذهل العالم الغافل عنهم!

أحضر الحروب وأوزارها وأشلاءها المتناثرة هنا وهناك، فلا أحد استطاع إيقافها لبرهةٍ إلاَّ هو!

أحضر البحار والغارقين في مياهها عبر قوارب الموت!

أحضر الطّبيعة بزلزالها وثقب طبقة الأزون لتحاكم عدوَّها، فأحضر الطَّرف الآخر منَّا أدلته في علبتها السّوداء؛ لأنَّها لم تستطع الكشف عن نفسها بنفسها، وأحضر مشاعره التي مزّقها هذا الضّيفُ وأحبّته الذين أخذهم الوباء قبل أن يكتبُوا وصيَّتُهم الأخيرة، وقبل أن يُفصحوا عن أسرارهم التي خبّؤوها في صناديق قلوبهم فقد باغتهم الموت، وعن مشاريعهم التي رسموها بأيديهم ولم يكملوها، تركوها مرسومة على نصف ورقة وتركوا لنا النِّصف الآخر عبرة لنكتب فيه سرّ حلول الوباء، تركوا قصص حبّهم التي أعلنوها خطبة ولم يكتبوها عقد قران، أصبحت العزباء أرملة دون دخول، لا شيء يكتملُ في هذا العام غير الحُزن المتراكم على القلوب، فهو الوحيد الذي يرسُم قدرنا

على مهلٍ، حزنٌ يظنُّ الجميع أنَّ الوباء هو سببهُ، هذا ما سنعرفه على السّاعة الصِّفر على زمن المستقبل؛ لأنَّنا سنشهد مُحاكمة شبح 2020 الذي حُكم عليه بما لم تتوقّعوهُ، فردَّ عليهم بما لم يتوقّعوه!!!

لعلَّه يعشقُ القُرون، ها هو يأتي زائرا ليحتفلِ بعيد ميلاده كلَّ مئة (100) عامٍ، ها هو يُشعلُ شُمُوعه في كُلّ بِقاع الأرضِ عبر أجسادِ البشرِ، يتركها تحترق على مهلٍ فتحترق القلوب فَقْدًا لأحبَّتهم دون سابق إنذار، كم هو قاسٍ؟ يترك عُلَبَ الهدايا هنا وهناك ثمَّ يمضي دون محاكمةٍ، يتركُ التّاريخ يسجِّل عثراته عبر عبراتنا، ليستفيق البشر من حلمٍ ما تمنَّوهُ أبدا!

ما زلنا ننتظرُ يوسفنا القادم إلينا من قلب التّاريخ، فلندع التّاريخُ يسجِّلُ من قلبِ الحَدَثِ أكبر كوارثِ القرن الواحد والعشرين، ويذكّرنا بزمن الأوبئة التي تضعُ مولودها كلَّ قرنٍ، أصبح العدد العشرون بعد الألف مُخيفا، كأنّه كابوس يحلُّ بالعالم، كأنه منام أو حلم آتٍ من زمن نعرفه هو زماننا، لكن الضّيف الذي حلّ بنا لا نعرفهُ، الكلُّ يتمنّى أن يكون حلمًا وليس

حقيقة، ننتظر متّى نستيقظُ منه، فهل سنستيقظ من هذا الكابوس المفزع؟

أصبح الكابوس مقترنًا بالعددِ بعدما كان مقترنا بالعُدّة والعتاد، أصبحت الحرب بيولوجيَّة مع أضعف مخلوقٍ جُرثوميّ، عادَ زمن الأوبئة الفتّاكة بالبشر التي نجهلها معاينة ونعرفها تاريخا. لم أكن أعرف أنّ الأوبئة حلّت منذ القديم، ابتداء من طاعون عمواس 663م الذي عمّ النّاس، والطّاعون الجارف الذي جرف النّاس كالسّيل، إلى أوبئة أخرى حلَّت بالعالم عام 1520 وسمّيَ بالجذري، وعام 1720 انتشر طاعون مرسيليا العظيم، وعام 1820 الكوليرا، و1920م الإنفلونزا الإسبانيَّة إلى 2020م الذي فاجأنا بفيروس كوفيد-19 الذي يعدُّ الوريثُ الشَّرعي لعائلة كورونا. كلّ هذه الأوبئة عادت لتعانق ذاكرتي في لحظة خوفٍ وتُرعب جسدي الضَّعيف. لعلّي لن أعود لأهلي كما كنت سابقًا أذهب كلَّ صائفة محمَّلاً بالهدايا، لعلَّ هذا الحدث الذي روَّع العالم وروّعني معهُ سيغيّر الكثير من أفكار مغترب عن وطنه وتفكير العالم كلّه، فقد أعلنوا حالة الطّوارئ بكلِّ اللُّغات هناكَ؛ لا خروج، لا دخول، لا طائرات، لا باخرات، بقيت هناكَ

مُعلَّقًا بحروف تختلجُ أنفاسها بحلول ضيف 2020 بتوقيتِ يوهان الصّينيّة وبتاريخ 10 كانون الثّاني العالميَّة. لا سفر، ظنَّ الجميعُ أنَّ أخبار مواقع التَّواصُل الاجتماعي كذبة وضعوها في قطعة خبز وأكلوها كوجبة ساندويتش ساخنة، حينما نشر طَبيبُ العيون الصِّيني "لِي وين ليانغ" الذي أبصر بنورِ العلمِ ما لم يُبْصِرهُ غيره عام 2020 إلاَّ بعد فوات الأوان، نشرت الكثير من الأخبار على مواقع التّواصل الاجتماعي: «سيحلّ بالعالم ضيفٌ جديد غير مرحّبٍ به سيغلق عليكم الأبواب، سيمنعكم الخروج، سيأخذ منكم أحبابكم دون حرب، دون سلاحٍ، ويفعل ويفعلُ»...

فأرسِل خطاب من المحكمة للذي نشر الخبر: من أنتَ لتروّع النّظام العام بخطابك السّابق؟ العالم يعيش في هدوء وسكينة، لن يحلّ بنا شيء، فنحن القوَّة العظمى!

حلَّ الضَّيف الجديدُ الملقب بـ: «كورونا أو كوفيد-19» ورحل الطّبيب بعدما أُصيبَ بالعدوى، هكذا هم الأبطال حتَّى في المسلسلات والأفلام يُغادرون لتبقى قصصهم خالدة في التّاريخ،

فتساءلت: "هل هو أوّل من اكتشف الوباء أم أنّ هناك أعوام سبقت وحذرت من هذا الوباء؟ هل استوعب العالم الدَّرس؟"

ليس بعد...

ليس قبل أن يلتقوا في محكمة التَّاريخ ويحاكموا على الكلام الذي نفخُوهُ بأفوَاهِهم، فأصابوا رئاتهم فانطبق عيلهم المثلُ: «يداكَ أوكتا وفُوكَ نفخ». ها هم قد أصبحوا أشبه بمُثلث الخطر بين ظالم ومظلوم وبينهما التفاحة-19، التقى الجميعُ في محكمة الحياة بين شاهدٍ ومشهُود وأصحاب الأخدود، وتساؤلاتٍ بلغت عنان السَّماء، أخذت تتصاعد وتتصادم في الهواء عبر بالونات منفوخة كتب عليها:

- ما بال العالم تتهاوى قطعهُ هنا وهناك؟

- أين قوَّته؟

- أين أبراجه الكاذبة التي لم تتنبَّأ لكم بحلول ضيف 2020؟

- لماذا أغلقت مساجدكم؟

- أين أصواتكم العاليَّة؟ خفتَتْ أمام أضعف خلق؟ لم يتسنَّ له الوقت ليطلق حتّى اسمه، بل أنتم من وضع له اسمه واحتفل

بقدومهِ ليلة الميلاد التي يزعمونها. احتفل نساؤهم ورجالهم وتساوَوا في السّهر على مائدة مليئة بتفاحة آدم-19، والآن خفتت الأضواء حولهم...

- أين هم؟

- ألم ينادوا بحريَّة المرأة؟

- ما بالهم مكثوا في البيوت معهَا؟ لعلّهم اكتشفوا أوّل سرّ وراء حلول الوباء!

- أيعقل هذا؟

لقد عادت حوّاء لمملكتها وعاد آدم لكهفهِ ليراجع أفكاره البالية، ولا تزال تفاحة آدم-19 على موائدنا لم يتغيّر لونها ولا طعمها رغم نزولها من السّماء منذ آلافِ السّنين، ومكثوها في كهفكم، حتّى إذا خرجتم من كهفكم وبعثتم شبابكم بورقكم إلى المدينة ليحضر لكم طعامًا بعد كورونا، ستجدون أنّ الورق بات عملة قديمة، لن تبقى العملة في أيدينا، سيوزِّعون عليكم بطاقات تشترون بها وتبيعون بها وتبقى الأوراق كان يا مكان

حديث اللِّسان، لعلّ هذا سرّ من أسرار الوباء الذي لا يزالُ مختبئًا بين الفكِّ والأسنان، ولا زلنا نتساءل:

- أين الدّبابات والصَّواريخُ؟ ما بالها أخرصت أمَام أضعف فيروس؟

إنَّهُ الطَّارقُ الذي لم يفتح له أحد الباب، لكنَّه ولج عبر كلِّ الأبوابِ، رغم أنّكم غلَّقتم الأبواب وقلتم: "لا هيتَ لك"، فقال: "تركت لكم قُبْلَة الموت عند الباب، فوجِّهُوا سجادكم نحو القِبْلةِ"...

تساءلتم كيف ولج؟ أرَّقتكم الأسئلة وأقضت مضاجعكم مثلما أقضت مضجعي، وأنطقت مراضعكم:

- عبر الدِّيدان؟

- عبر الثّعابين؟

- عبر الحشرات؟

- عبر الكلاب؟

- عبر القطط؟

- عبْرَ الحمير؟

- عبر الطُّيُور؟

- عبر الخفافيش؟

- عَبْرَ مَنْ عَبَرْ؟

- عبر البرِّ أم عبر البحرِ؟ لا زلنا تائهين عن مخبر الخبر؟ هي أسئلة كُتبت في زمن الحدث لتقرأ في زمن حدث آخر يُشابهُ، فالأحداث تولد من رحمٍ متعدّدة لا من رحمٍ واحد، فالبشريّة لا تزال تعاني مخاض ولادة عسيرة لميلاد وباء كورونا، فمن سينقذ البشرية يا ترى ويكتشف اللّقاح؟

****

10كانون الثّاني 2020

كنتُ دائمًا أتساءلُ وأنا حبيس غربتي: "مَنْ يُنقذُ البَشَريَّة من هذا الوباء والعالمُ تختنقُ أنفاسهُ؟ تتناثر أرواحه هنا وهناك، أرى مدينتي السّاحرة والخوف يقتُلُ سكّانها، يحصد الشّبح شعبها فردًا فردًا، أعتقد أنَّهُ بيننا وبينهُ قضيَّة عالقة، جعلنا ندفعُ ثمنها غاليا، ترى من هو ومن نحن؟"

إنّهُ صراع البشريَّة منذُ الأزل، دموعنا تسيلُ كالأنهار فقدا على أحبابنا، هكذا هي أحوالنا اليوم، فالذي لم يعشْ زمن وباء كورونا لا يستطيع أن يشعر بما نشعر، لكن بإمكانهِ أن يتخيَّل ذلك، فقد احترقت مشاعرنا في مدفئة الوباء، في كل يومٍ أخبار جديدة تزرعُ الرُّعب، قنوات تبثُّ الموت، تتسابق لنشر أفلام الرّعب لبطلٍ ليس له طول ولا عرض، ليست له صورة ولا نفسُ، لكنَّهم أعلنوا ميلاده ودلَّعُوه بتسميَّة آتيَّة من وراء البحار، فالمصطلحات لهم ونحن نستوردها والعالم يُشاهد والتاريخ يشهد ويسجِّلُ عبر صفحاتهِ ما قبل الأخيرة توديعًا لأعزّ أحبابهِ، أصبح الأب يخشى على ابنه، والابن يخشى على والده، والأمّ تخشى على ابنها والابن يخشى على أمِّهِ. ولقد كانت خشية أمِّي

عليَّ جميلة رقيقة، كلَّمَا فتحت الحنفيَّة كأنّي أسمع صوتها وأرى صورتها، فأخرج معقمّي من محفظتي وأضعه على يدي ثمّ أفتح الباب وأدخل، وما إن أدخل حتَّى أضع حذائي عند الباب وألبس آخر، ثمّ أمر بالحنفيّة فأغسلُ يديَّ مرّة ومرّتين وثلاثا، فوصايا الأمّ عندما تكون بعيدة تكون بمثابة تواصل معهم أو كجلسة شاي معهم...

آه يا أمّي من ذكريات تكادُ تقتلني! لم أكن أنا الوحيد من تُوصيه أمّه بل أصدقائي كذلك، فمهما كبرنا بالطُّول وأصبحت أصوات حناجرنا جهورية، إلاّ أنَّنا في أعين أمَّهاتنا ما زلنا نناغي زمن الطّفولة عندهم، كم هنّ طيّبات؟ وكم نحن سيِّئون؟ وما كان يشدُّ انتباهي تلك الجمل الشّهيرة للعائلات العربيَّة التي أصبحت تتكرّر على لسان كلّ أمّ:

- اقعد في دارك... أهلنا بالجزائر

- خليك في بيتك...أهلنا بالسّودان

-الزم بيتك... أهلنا بمصر

-خَليك بالبيت، ضلَّك بالبيت... أهلنا بدول الخليج

- انكسح ببيتك... أهلنا بفلسطين

- خلّيك بالبيت... أهلنا بلبنان

- نَبْقَاوْ في الدَّار... أهلنا بالمغرب...

وجدت نفسي في آخر المطاف أكتب معجمًا للَهجات اللُّغة العربيَّة الجميلة، لم أكن أدرك أنَّ الوباء بهذا الدَّهاء، يحملُ وجهًا مشرقًا، فبعدما زرت أكثر من عشرين دولة وكشفت أكثر من عشرين ألف لغز وسرّ، ما رأيت مثل هذا الوباء الذي حلَّ بالعالم، ذُهِلْتُ لِما وصل إليهِ العالم الآسيوي والأوروبي! لقد ذهبت وأنا لم أتجاوز الخامسة عشر من عمري لأرى العالم الغربي واكتشفُ جنَّتهُ التي أوهمونا بوجودها وراء البحار، هذا العالم الذي بهرونا به لأعوامٍ وأعوام، حتّى استفقنا على شبح كشف عن العالم أقنعتهُ الكاذبة التي تشبه أقنعة ساحر أرهب عيون النّاس، فخيّل لهم أنّهُ القوَّة العظمى. استفقتُ من غفلتي يوم أبصرتُ الكثير من أفرادِه يلفظ أنفاسهُ الأخيرة بالآلاف، بين عشيَّة وضحاها سكنت شوارعهُ وأصبحت خاوية على عُروشها، ما فائدة الأماكن والزوايا إن لم يسكنها أحبابنا؟ لقد اشتاقت

لنا حتّى الكراسي الخشبيّة بحديقة المدينة، الكلّ يتساءلُ ماذا حدث؟ هل انقلب السِّحرُ على السَّاحر؟

لقد أسقطت مقولة آلاف السِّنين "الجنّة وراء البحار" ليسقط قائلوها، فلا جنّة وراء البحار للإنسان إلاّ الجنّة التي وصفها الله؛ عرضها السَّموات والأرض. لم تعد أندلسي التي زُرت قصرها الحمراء مهبط العاشقين لحضارة ضاعت منَّا، فلا زوّار في قصرها الحمراء، لعلّ أصحابها الأوائل عادوا يستنشقون منها حنين الياسمين. لقد أغلقت إسبانيا حدودها الجوّية والبريّة يا طارق بن زياد! فهل ستأتيها فاتحًا يومًا ما؟لم تعد إسبانيا التي ذهبت إليها عاشقًا لتراثِ أجدادي ساحرةً، بل أصبحت بؤرة وباء الكلّ يفرّ منها ومن حسناواتها، من كان يصدّق ذلكَ قبل زمن كورونا؟

لم تعد باريس الجميلة رومانسيَّة كما عهدها عشَّاقها يا فولتير! لا سيّاح يأخذون صورًا عند برج إيفل إلاّ ما كان ليلة رأس السنّة لمّا احتفلوا بقدومها وما درَوا أنّهم يحتفلون بحلول شبح 2020، زيَّنوا شجرتهم بتفاحة آدم-19 واستنشقوا رذاذها...

لم تعد لندن مدينة الضَّباب فقد انكشف الضّباب أمام الوباء وكشف ما تخفي الصدّور من وباء ضيَّق الأنفاس على البشر، أصبح تمثال الحريّة في نيويورك وحيدًا، لا أحد يأخذ صورةً معهُ، لا أحد يلمسهُ، جرثومة صغيرة أصبحت أقوى منهُ. ذكَّرني هذا بقصَّة النَّملة والفيل التي قرأتها في صِغري، فرغم كبر حجم الفيل وقوَّته الظَّاهرة إلاَّ أنّ النّملة الصّغيرة كانت تأتيهِ من حيثُ لا يدري، تذهب لأذنهِ وتزعجهِ فلا يستطيع فعل شيء. ولا النّمرود استطاع قهر ذبابة دخلت أذنه ومكثت فيها خمس مئة سنة حتّى قضى نحبهُ. لم يعد سور الصِّين الذي عظَّموهُ بوصفهم عظيمًا مهبّ السُّياح، السّور يشتكي وحدته، والصّين تصارعُ الوباء الذي أتى على الأخضر واليابس.

ها أنا اليوم أقفُ أمام مرآة قلبي أعتذرُ لنفسي عن وهمٍ صدَّقتهُ، عن مقولة فلسفيّة درّسونا إيّاها لسنوات عجاف، لم يستقصوها ولم يدافعوا عنها، عن أيّ جنّة تحدّثوا؟ بل هو جحيم وراء البحار، لا زلت أعاتب نفسي عن جرعة مخدّر سمحتُ للآخرين بحقني بها! لم أكن أظنُّ يومًا أنَّ العالمَ سيصبح مشلولاً يجلسُ على كرسيّ مُتحرّكٍ، نِصْفهُ يثمل أوّل اللّيل

ونصفهُ الآخر يُناجي آخر اللّيل، ينتظر من يدفعهُ للأمام، وجدتُ نفسِي غريبًا مغتربًا جالسًا على سجادتي مع النِّصف الثَّاني من اللّيل أناجي ربِّي، فالكثير من النَّاس ظنَّ أنّ الوباء هيّن يمكن التَّصدي له بسهولة، ظنُّوا أنّهم يرَّتبون أحداثهم والعالم يسير حسب تسييرهم ونسوا أنّ القدر من يرتّب الأمور على قدر...

وفي هذا الوقت نفسه وجدت نفسي عالقًا في إسبانيا ونصفي الآخر ماريا بالبلد، بقيت مع والديها لأنَّ أختها سِيدْرَا سافرت يومين قبل انتشار الوباءِ إلى الأردن من أجل بحوثها الاقتصاديّة، ذهبت وهي تضع جدول أعمالها. العائلة تزهو فرحًا قُبيلَ أيّام بسفر أبنائها وصهرهم، فالكلُّ يهوى السّفر خاصَّة إلى الدّول الأوروبيَّة اعتقادا منَّا بوجود الجنَّة وراء البحار، لا أدري من حَقننا بهذه الأفكار البائسة؟ اعتقدنا أنَّ السّعادة في السَّفر إلى تلكَ الدُّول، من يدري أين توجد قطعة السّعادة؟ أظنُّ أنَّنا لم نسمع نداء الأرض؟ لبَّينا نداء الغربة فتجرّعنا علقم الوباء بعد سنوات...

لم نتكهَّن مستقبلنا، فهذه تفاهات ليست من مُعتقداتنا، تُرى هل وجدنا السّعادة هناك؟ هل اشتقنا لأرضنا؟ هل حظينا

بقطعةٍ منها لتضُمّنا فقد أصبح هذا أكبر حلم لنا؟ فهنا الجثث تحرقُ جماعة كأنَّها كتل من العجين تراص بعضها فوق بعضٍ، لا نحظى حتَّى بميتةِ لائِقة. كان الموت أكبر هاجسٍ يؤرّقنا في غربتنا، كلّما اتّصل بنا أحبابنا من وراء البحار قرؤوا الخوف على ملامح وجوهنا وتساؤلاتنا التي كادت تقتلنا قهرا قبل الوباء: "ماذا لو قتلنا الوباء ونحن هنا وراء البحار؟ هل سنحرقُ وتنتقم منّا تربتنا حين تذمّرنا منها وقلنا تبًّا! هل ستنتقم لأنَّنا قلنا الجنَّة وراء البحار؟"

أظنُّ أنَّنا سنتراجعُ قليلاً إلى الوراء لنسحب مقولتنا البائسة «الجنَّة وراء البِحار» من قاموس عقولنا، أو بالأحرى نحذفها من قاموس شبابنا. لا زالت قوارب الموت تنقلهم لوسط البحر، كأنّها عدوى انتقلت حتّى للآباء ينقلون صغارهم إلى هناك، ليتني أستطيع أن أصرخ بأعلى صوتي وأقول: "توقَّفوا، توقَّفوا، توقَّفوا وانزعوا عن عيونكم الغشاوة التي تخيّل لكم من سحرهم أنّها جنّة، من حَقنكم بحقنة «الجنَّة وراء البحار»؟ ما هذا الاعتقاد البائس؟ لا جنَّة فوق الأرض، فقد أكلنا جميعًا من تفاحة آدم-19 وطردنا من الجنَّة، فهبطنا الأرض لنغسل قلوبنا ونمحي

خطايانا التي رسمناها بأيدينا وتخطّيناها بأرجلنا. أظنُّ أنّنا جميعًا لنا عائلات وراء البحار، علقوا هناكَ بسبب الوباء، ولكن ليس مثلي فما زاد الطِّين بلّة زوجتي ماريا وعائلتها بالجزائر، فهُم لم يتوقّعُوا الفاجعة الكبرى التي ستحلّ بالعالم، وتغيّر أحداثه وتشلُّ حركتهُ وتوقف رحلاته الجويّة. كان الأمر بمثابة الصّاعقة على العائلة، هل سنعود قبل تعليق الرّحلات أم أنّنا علقنا هناك لمدّة من الزّمن لا يعرفها أحد؟

ماذا لو علقت سيدرا أخت زوجتي ماريا مدّة أطول وهي لم تتعوّد السّفر؟ من يدري متى يذهب الوباء وتعود لأمّها وأبيها الكبيرين في السنِّ؟ أصبح كلُّ المهاجرين يعيشون هنا هاجسًا رهيبا، أقضّ مضاجعنا، أسئلة تؤرّقُنا:

- الحرقُ أم الدّفن؟ هذه إحدى الأمنيات التي أرَّقت الكثير منَّا في زمن كورونا ونحن في ديار الغربة نتذوق العلقم، من لي هنا في إسبانيا غير الله؟

فقد أخذ الوباء يحصدُ الأرواح بالآلاف في إسبانيا، حتّى إنّ أعداد الموتى وصلت إلى أكثر من أربع مئة وفاة يوميًّا، وبعض الدّول فاقت المعقول، كأنّ جثثهم تنبئ بيوم القيامة، لم يعد

هناك وقت للحفر بل هناك وقت للحرقِ. هنا أصبح الجحيمُ وراء البحار، أصبح العالم الآسيوي والأوروبي موبوءًا، لا أحد استطاع تغيير مقولة: "الجنّة وراء البحار" إلاّ وباء كورونا، فبعدهُ أصبحت المقولة الشهيرة: "الجحيم وراء البحار"، أصبح عقلي لا يفكّر إلاّ في بلدي الجزائر الحبيبة، موصولا بحبل الاتّصال بأمِّي وبماريا زوجتي...

****

ماريا يونيو 2020

لا يزالُ زوجِي إلياس هناكَ عالقًا في مدينة الغرباءِ يربط بيننا خيط رفيع، يقتاتُ صبرهُ من صلاتهِ وتسبيحه فلا حول لهُ ولا قوَّة إلاَّ بالله، مشاعره كالحديد صلبة لا تهشّم، ما إن تقربها حتّى تشعر بحدّتها، ومشاعري كزجاجة عطر تروح وتجيء أمواجها، فلا طائرات أصبحت تحلّقُ في الجوّ ولا سفن تخطُّ طريقَها عبر البحر، أصبحت السُّفن موبوءة، كسفينة الأميرة الماسيَّة Diamond princess التي نقلت الوباء عبر رجل من هونج كونج يحيِّي هذا ويسلِّمُ على هذا فنقل الوباء عبر أرجاءِ السَّفينة، فكيف بالسّفن الأخرى؟ أصبحت هذه الأخبار بمثابة الوباءِ الثَّاني الذي يضعفُ صحّتنا ويقتلنا قبل الوباء، كثرت الأخبار هنا وهناك وانتشرت كالفراش المبثوث، وفي هذه اللّحظة التي أفكّر فيها بحالي وحال زوجي وأختي تتَّصل بي صديقتي المقرَّبة سلسبيل وتسألني:

- هل أنتِ بالبلد يا ماريا؟ أجبتها عبر رسائل التمامبر: نعم أنا بالبلد.

- لقد تابعت أخبارك أوّل بأوّل، تعرفينني أشتهي معرفة أخبارك الطّازجة.

لقد عدتُ مُؤخَّرا من أرضِ الكنانة، وفوجئت في المطار لمّا رأيت العمّال يضعون الكِمامة والقفّازات على أيديهم، عرفت في تلك اللّحظة أنَّ الوباء انتقل إلى دول أخرى من الصّين...

الحمد لله عُدت قبلَ انتشارِ الوباء كاد أن يحجزني في مصر، مع أنّي أحببتُ المكوث أكثر في هذا البلد!

- هل زرتِ الأهرامات؟

نعم زرتها وأخذت صورا تذكاريّة فيها...

- ماريا، هل تذكرينَ ما رواهُ لنا أستاذنا فِرعون لمّا كنّا في الجامعة؟

قهقهتُ؛ أيعقلُ أن أنسى ذلك؟ لا والله ما نسيت، أذكر لمّا أخبرنا وهو المعروف بنكتهِ المضحكة حدّ الدّموع، فهو الأستاذ الوحيد الذي كان يخرجنا من روتين المحاضرات المملّة، أذكر لمّا وصل لزيارة المتحف المصري طلب منه البواب دفع ثمن تذكرة الدّخول فأراهُ بطاقته القوميّة وقال له: "اقرأ فرعون جاء لزيارة

فرعون، كيف تأخذ منّي تذكرة وأنا أحمل لقبهُ؟ «فرعون؟»"؛ فصمتَ البوابُ ودخل أستاذنا دون دفع تذكرة منهُ، ولمّا خرج سألهُ البواب: "من أين أنتَ؟" فقال له: "أخوك من الجزائر"، فقال البواب: "أحسن ناس" ثمّ سألني مرّة أخرى:

- هل لك جذور قرابة معه، فقلت: "ما عذا الله مجرّد تشابهٍ في الألقاب"، والله يا صديقتي **رُوفَان** تذكّرتها لمّا ذهبت لزيارة المتحف المصري وضحكتُ كثيرا، لكن لم يكفني الوقت لزيارة كلّ الأماكن، تعرفين زيارتي كانت محدودة بأيّامها وساعاتها، ليتكِ لم تسأليني يا **رُوفَان** وتذكّريني، فالأسبوع الواحد كان مجحفًا في حقّي يوم زرتها، شعرتُ أنَّ هذا البلد يحتويني في مهدِ حضارتهِ التي رُحتُ أتلمَّسُهَا هنا وهناك أعلى الهرم، ورُحتُ أحادثهُ حديثًا لعلّهُ يُفصِحُ لي عن السرِّ، لماذا أصبحت النّاس تقبّل الحجر ولا تقبّل البشر في زمن كورونا؟ وتضع صورها عبر مواقع التواصل الاجتماعي للتّفاخر، هل أصبحت القلوب حجرا؟ لكن هيهات هيهات أن يستفيق السرُّ النَّائم أهله إلى يومِ الدِّين...

آهٍ يا صديقتي ما أروع أناسها الطَّيّبين! ينثرون أريج عطرهم عبر نسمات الهواءِ كلَّما تهت وسألت عن مكانٍ ما، تجذبك أصواتهم

التي تنادي بأسماءِ الأماكن من بعيد، عدت ولا تزالُ تلكَ الكلمات والأصوات تغازل مسمعي، فِيصل، المريوطية، السيّدة زينب، الحسين... وهيبة المكان الذي احتواني بروحانياتهِ ذي الباحة الواسعة يتوسَّطها ركن مربع الشّكل، إنَّهُ جامع الأزهر، أين تزهر القلوب الميِّتة، وعبق التّاريخ يتنهَّدُ من هناكَ، جلستُ جلسة طويلة على بساطه المزركش المختلفة ألوانهُ وأنا أرقب بإعجابٍ شديد الفتيات القادمات من إندونيسيا وماليزيا يحملنَ مصاحف صغيرة ويحفظن القرآن، عرفتهنَّ من قامتهنّ وابتسامتهنّ وسماحتهنَّ، وما زاد إعجابي بهنَّ كوني التقيت بهنّ عام 2017 هناك في كوالالمبور عاصمة ماليزيا وتجاذبت معهنّ أطراف الحديث في إحدى المؤتمرات الدّوليّة. وأنا أسترجع شريط ذاكرتي معهنّ اقتربت منّي فتاة ماليزية جاءت من بلدها لجامع الأزهر لتحفظ القرآن، تتكلّم العربيّة بفصاحتها في حين نقتل نحن العربيّة في عقر دارها بخليط لهجاتنا، آه كم هو العالم صغير حين تلتقي الأجناس في أماكن مباركة! فلا فارق العمر يبعدنا ولا فارق اللّغة يفرّقنا. خرجت من المسجد وأنا أحاول أن أجمع هذه المعارف والثَّقافات الجميلة، سرتُ أبحث عن مكان

الباص فسمعت كلمة لم أفقهها في بداية الأمر «فكَّة فكَّة»، أخذتُ أمشي وأردّدها بعفويَّتي «فكَّة فكَّة» حتّى أدركتها بعد تعوّدي ألفاظ أصحابها. ما أروع أمسياتها على متن قارب يسبح فوق نهر النّيل! ألامسهُ بأصابعي لعلَّه يروي لي عجائبهُ وأساطيرهُ، لم آتيهِ لأرتوي من عَطشي، بل ليرويني من حكاياتهِ الغابرة في الزَّمن الماضي، لم يسعني إلاّ أن أبني جسرًا من التَّواصل على أمل العودة إلى أرض الكنانة، فأنا عكس زوجي هو يعشقُ المدن الأوروبيّة، وأنا أعشق المدن العربيّة وعبقُ التّاريخ المنبعثِ منها!

- احمدي الله يا ماريا فقد استمتعت بعذوبة ماء نيلها ولحنهِ الحليمي، وماذا عن زوجك إلياس كيف حالُهُ؟ وما أخبارُ سِيدْرَا؟ هل هي في تربُّص أم أنَّها أجَّلت موعده بسبب هذا الوباء الذي نعيشه؟

كانت أسئلة صديقتي بمثابة وابل من اللَّكمات لا الكلمات، كأنَّ الحجْر المنزلي أثَّر عليها وجعلَها تُخرجُ كومة من الأسئلة في وهلةٍ واحدة، فقلتُ لها:

صدق من قال: «حين يقولُ الرّجل كلمة تلدُ المرأة آلاف الكلمات فهنيئًا للرّجال بكثرة المواليد»، قهقهت بأعلى صوتِهَا،

فقلتُ لها: "انقسمت مشاعري بين أختي التي علقت بالأردن فما استطعت إليها سبيلا، وبين إلياس الذي علق بإسبانيا وما عرفت لرجوعهِ دليلا. سافرا ونسيَا أن يأخذا معهما متعة السّفر؛ لأنّهما أخذا في حقائبهما مشاعر نصفها يحترق شوقا هنا ونصفها الآخر يقتات من الصّبر، يُقلبهما الخوف ذات اليمين وذات الشّمال وأنا عاجزة مكبّلة اليدين. إلى متى يبقى هذا الوباء اللّعين؟ وما يزيد الطّين بلَّة سماعنا بوجود فيروسات أخرى، تولد عندهم فقط، لعمري هذا أمر عجيب! ما وجدت عزائي في شيء غير هذا الهاتف الذي أتواصل عبره مع أختي وزوجي، فبيني وبينهما بحارٌ أخذت من ملحها دموعًا لأواسي نفسي، ولا أظنُّ أنّي الوحيدة التي تعاني هذا الفراق بسبب الوباء، فالعالم كلّه كان مثل الطّيور المهاجرة وما أنشودة الوطن إلاّ عزف على قارعة الطّريق".

- آه يا صديقتي ماريا؛ أنتِ في موقفٍ لا تحسدينَ عليهِ بعدما كنت محلّ حسد الكثير من العيون.

- ماذا ستفعلين الآن؟

- ماذا عساي أن أفعل؟ أصبحت مشاعري تحترقُ رويدا رويدا، فالبعد معركة مُلتهبة تحرقني، تؤجّج ناري، لا سلاح فيها غير

الصَّبر، لا أستطيع فعل شيء سوى العودة لمدينة ذكرياتي الجميلة، بتُّ أحنُّ إلى الأيَّام الخوالي التي كنت أوزِّعُ فيها ابتسامي مجانًا، لا شيء يحزنني، تظهر الخوختين على وجنتيّ حين أضحك، أمشي في الشّوارع وأنا متفائلة أرمي بخطواتي إلى الأمام، باتت تلك الأماكن خالية لا تساوي شيئا دون أحبابنا، فلا قيمة للقصور دون أميرها، ولا قيمة للجدران دون أهلها، فأرواحنا هي من يصنع السّعادة لا الطّين، فنحنُ من يصنعُ دفءَ البيوتِ لا الجدران، ونحنُ من يضيء القلوب لا الثُّريَّا...

كم أحنُّ إلى خطواتي التي كنت أرميهَا يوم خرجت مع صديقاتي وزخَّات المطر تبلِّلنا! تسقطُ فجأة وتباعًا على بشرتك كأنّها بلَّور تساقط لحظة ضحكت السّماء، تشعرين بنسمات بشرتك تتشرّب تلك الزّخات الطّاهرة، فما أجمل الأشياء النّازلة من السّماء! لكن ما إن تلمس البشر حتّى يتغيَّرُ معدنها، نظر إلينا عامَّة النّاس نظرة غريبة قرأنا من خلالها سؤالهم:

- كيف يمشون في المطر لساعات وساعات؟ أظنُّ أنَّهم لو سمحت لهم الفرصة لفعلوا مثلما فعلنَا، لكنَّهم كتمُوا مشاعرهم وكابروا أمام النَّاس، فكبِرُوا قبل أوانهم، وكتمُوا ذلك الطِّفل الصَّغير

الذي بدواخلهم، ماذا لو داعبُوا زخَّات المطر وتركوا نداها يعبُر قلوبهم فتزهرُ حدائقهُ الغنَّاء؟ ماذا لو تركوا زخَّات المطر تصافح أكفّهم فينبت الياسمين من نبض خطوطها الزَّهرية؟ ماذا لو عاشوا لحظاتهم بكلِّ عفويَّة دون تصنَّع، فالتصنُّعُ أينما حلَّ أتعب صاحبهُ، والنَّفس تتعبُ من كثرة التّصنُّع وترتاح وتنبسط من كثرة العفوية في التّعامل والعيشِ، فكونوا عفويين وبسطاء، فها هي اللّحظات السّعيدة يسرقها منَّا وباء كورونا، إلى متى ننتظر؟

سعادتي كنت أشعر بها حينما أعود إلى منزلي وأرمي حذائي وألبسُ بجامتي، فحتَّى الملابس الرَّسميَّة تقيِّدنا في بعض الأحيان. هكذا كانت أيَّامي وابتسامتي التي كانت لا تفارقني، أمَّا اليوم فأنا أبحثُ عمَّن يبيعني ابتسامةً ولو لدقائق، فقد رسمت الغربة خريطة الحزن على وجهي لتعلن للملأ مدى شوقي واشتياقي لمن هم وراء البحار، بات كابوس الأسئلة يُرعِبُني:

- هل سأراهُ مجدَّدا؟

- هل سيصيبهُ فيروس كوفيد-19 وهو في بلد الوباء أم سيخطئه؟ فالوباء أصبح ملتصقًا بكلِّ شيء يلمسه الإنسان،

على الجداران والنّوافذ وأقفال الأبواب وغيرها، آهٍ من وباء فصلنا عن بعض وفصل قصّتنا التي لم تكتمل، كنتُ أريدُ أنْ أخبرهُ أشياء لم أقلها له من قبل، لا أستطيع قولها عبر شاشة الهاتف، فزجاجُهُ يحجبُ مشاعرِي، يُقيّدني، بيننا قصَّة لم نكملها بعد، كتبناها ولكن لم نضع لها حروفا ونقاطا، لا أحد يتقنُ وضعها مثلهُ، لا أحد يتقن الحبَّ مثلهُ، ها هي جرثومة صغيرة توقظنا من سباتنا العميق وتعلِّمنا كيف نحبُّ وكيف نعانق، وكيف نعبّر عن مشاعرنا في وقتنا، فنزول الغيث في الشّتاء ليس كنزوله في الصّيف.

هوّني عليك يا ماريا، فمسافة البعد لا تؤرّقكِ وحدك، إذا أنت اشتقت لزوجك الذي وراء البحار، فأنا قد اشتقتُ لأبي تحت الثَّرى، لقد تسلَّل إليهِ الوباء لمّا ذهب للمستشفى لزيارة أحد أصدقائه المقرَّبين مع أنّي منعتهُ من ذلكَ مرارًا وتكرارا، لكنَّ القدر استدعاهُ، ولمّا عاد شعر بتعبٍ شديد وبشيء ما في حلقهِ يحشرج، جفاف قاتل، فتوجّه مباشرة للبرّاد وأخرج قارورة الماءِ البارد وشربَ فذهب ظمأه وابتلّت عروقه.

توقّفي يا صديقتي **روفان** لأخبركَ شيئا، لعلّ أباك لمّا شرب الماء حتّى ارتوى ساعد الفيروس ليدخل لخلية الرئة، فجعل لنفسه هذا الفيروس مصنعا ينتج من خلاله مواليده التي تهاجم الجهاز التَّنفسي وتضعفه، ويضعف حاسة الشمّ لديه.

لقد عاينت حالات كثيرة مثل أبيك، خصوصا كبار السنِّ ليس لديهم جهاز مناعةٍ قويٍّ يحميهم، لذلك كنّا نكثِّف من إعلاناتنا ونطلب منكم المكوث في منازلكم خشية العدوى.

آهٍ فات الأوان، لم يدرِ أبي كيف وقع ضحيَّة جرثومة لا نراها بالعين المجرَّدة؟ ظننت أنَّها إنفلونزا عادية أصابته، كُلَّما كان يعطس أشمّته "يرحمك الله" فيستمتعُ بذلك ويقول: "يهديك ويصلح بالك". أصبح يجرُّ جسده المنهك ويرمي بأطرافه كأنّها بلا حياة، كلّما تمدّد أصبح مثل الجثَّة الهامدة مستسلمًا في حربهِ ضدّ المرض، كأنّه يعانقُ عناقيد الرّحيل، استدرت شمالا لأعود بذاكرتي لوجه أبي الذي كان يتوهّج غضبا والشَّرارة من عينيه تلتهبُ، صوته يزلزلُ غرف منزلنا، وكلَّما أشحت بوجهي أجده وديعًا هادئًا، يتسلّل الصَّمتُ ليملأ زوايا غرفته، متى كان الزلزالُ صامتًا؟ متى كان البركان خامدا؟

أمست تجاعيد الحياة ترسم على وجه أبي كلّ أنواع الأسى التي عاشها لمّا كان صغيرًا، ما ذنبهُ ليحرم من الحبّ والحنان في أيّامهِ الأخيرة؟ وما ذنبنا أن يذيقنا من كأس علقمه؟ أضحك مرّة وأبكي مرّة أخرى. ها هو أبي ينظر إلى أمّي نظرة ذابلة وقد تدلَّت أوراق جفونه على نصف عينيه لتعلن وقت المغيب، وهي لا تزال تطأطئ رأسها كلّما نظر إليها ومن قبل كانت ترتعشُ من نظراته!

حبًّا أم شفقةً؟ لست أدري، لست خبيرة بعوالم النّساء، رمت بظلالها على دهاليز ماضيه الذي يودّعه على كثبٍ، فغضبه وقود حبّها الذي لا ينطفئ، فحبّهما غير حبّنا!

مرّت أيّام قلائل وهو على حاله، أخذتهُ للمستشفى ظنّا منّي أنّ الربو قد ضيّق عليه أنفاسهُ، بالكاد يصّعدُ قفصهُ الصّدري ليبلغ عنان معاناته، يشعر بغصّة في حلقه، يسعل ويسعلُ، يفتحُ فمهُ على آخره، وفي تلك اللَّحظة أسرع الأطباء لوضع جهاز التنفّس الاصطناعي لأبي وأُخذ لغرفة،لم أستطع الجلوس للانتظار وأنا أرقبُ الأطّباء بملابس شفافة تغطِّي كلّ أجسامهم...

أبصرت الطّبيب قادما نحوي، أوجست في نفسي خيفة، أتى الطّبيبُ لوحده، أين أبي؟

تعالي معنا لنجري بعض الفحوصات البسيطة.

وهل أنا مريضة؟ جئتكم بأبي فألحقتموني به!

لا يستطيع الذّهاب معكِ، فقد شاءت الأقدار أن يصاب بالفيروس اللّعين! إنّه فيروس كورونا، سيبقى في المستشفى.

كان هذا الكلام بمثابة الصّاعقة، أخذت يداي الرّقيقتان ترتجفان وقلبي تتزايد خفقاته خوفًا عليه ونسيت نفسي، إلى متى يبقى هذا الوباء اللّعينُ يسرقُ منَّا أحبابنا؟

إلى متى يسرق منّا أوقاتنا السّعيدة؟

أخذ الطّبيب يهدئ من روعي حتّى هدأتُ، ثمّ أخذني لإجراء التَّحاليل التي زادتني وسوسة، وبعدما ظهرت النّتائج سلبية عدت أدراجي دون أبي، وسلمت أمري لله، وفي اليوم الموالي ذهبت لزيارته، لم أستطع ذلك، منعوني من التّكلّم معه، حرموني من سماع صوته ومن سماع وصيته الأخيرة. ذهبت لنافذة غرفته أرقبهُ والزّجاج يقاومني يحجب عنّي تفاصيله، أعانق الزّجاج بيدي وأنا أرى أبي من بعيد قابعا في تلك الغرفة الباردة القاسية، لقد كانت غرفة أبي جميلة وسريره الحريري أجمل، لا أحد يزوره

غير الطّبيب مرّة أو مرّتين في اليوم، والمرأة الأربعينية المكتنزة اللّحم التي تحضر له فطوره وهي ترتدي كمامتها وقفازات على يديها، أبصرتني بحرقتي وأبصرتها بطيبة قلبها، أشارت إليَّ بسبابتها فأبصرني أبي.

أخذت ألوِّحُ بيديَّ الاثنتين كأنّي طفلة صغيرة، وسرعان ما تلاشت يداي لمّا بادلني النّظرات وقد انطفأ قنديل الأمل في عينيهِ، لا شيء غير الصّمت الكئيب يخيّم على المكان، لا شيء يواسيني غير البخار الخارج من فمي يملأ الزُّجاج بلونهِ الضَّبابي فأرسم بسبابتي شفاها تبتسم فيبتسم لي من بعيد، تظهر أسنانه البيضاء التي يسقطها تقدّمه في العمر، لا تزال تقاوم هشاشة زعمهم رغم التَّجاعيد التي تجمَّعت على حوافّ عينيه، وأنا هنا واقفة متعبة أرقبه تارة وأرفع رأسي للسَّماء تارة أخرى، أخرجُ زفرات تكاد تقتلني وزفرات تقتله هناك، ثم أعاود النَّظر لأبي وأميل بنظري للمرضى ولزوايا الغرفة، حتى الأسرّة لم تعد مريحة! هي أكذوبة صفراء حين قالوا:

- دعونا ننام على أسرّتنا لنرتاح، لم يعد السَّرير مريحًا، بات غريبًا مُوحشا يشبه الوباء، رائحة الموت قادمة من تلك الزوايا، لا أحد يقترب...

ابتعدُوا، اذهبُوا لبيوتكُم، نحن من يقوم بالدّفن، هذا كلامهم لتلك البنت التي تبكي أحد أقاربها فقد تمكّن منه الوباء، لم يسمح لهم الأطبّاء بتوديعه رغم أنّهم جثوا على ركبهم.

كم هي قاسية قلوبهم!

الموت يتجوّل بين ظهرانيهم، يمرّ بين أصابعهم، لا أحد يبصره في حين يبصرهم في كلّ مكان!

المسكينة لم يسمحوا لها برؤية قريبها ولا أخذه ولا دفنه، لا يشعرون بحرقتها.

آهٍ يا صديقتي روفان لو تضعين نفسك مكانهم ولو ساعةً، لو ترتدين ذلك القناع واللِّباس الواقي ربع ساعة من أخمص أقدامهم حتّى الرّأس لأغمي عليك من شدّة الحرّ، لو ترتدينه لشعرت أنّك تسبحين في حمامٍ مائي، اسأليني أنا؛ فأنا من يتصبَّبُ عرقها من رأسها، أشعر بالعرق يتقاطر أسفل ظهري حتّى

كأنّي به وخزة الإبر الصِّينية، حتّى إذا أردت أن تحكّي جسدك من وخزه فإنّك لن تستطيعي ذلكَ، كنت أفعلها نعم، ألتصق بالحائط خاصّة كتفي اليمين وأضربه عليه حتّى يذهب عنّي الوخز، أتظنّين العمل هناك سهلاً؟ تلتقين بالموت آلاف المرات، لكنّه يعبر فقط للعابرين إلى الضِّفة الأخرى...

آهٍ يا صديقتي؛ لقد فاجأني وباء كورونا بأخذ أبي، كانت فاجعتنا برحيلهِ تدمي القلب رغم أنّها لم تكن الفاجعة الأولى بل سبقتها فواجع ألمّت بأهل مدينتي. شاءت الأقدار أن يرحل ويترك جرحًا ينزف، لم نقم لهُ حتَّى جنازة تليق به، لقد تغيّرت مراسم الجنائز في زمن كورونا، أصبحت حكرا على العائلة الصَّغيرة فقط ومع ارتداء الكمامات، أمّا ما تبقى فبضع كلمات ينثرها أصحاب التّعزية علينا عبر هواتفهم. لا أحد استطاع مواساتنا ولا كفكف دموعنا الحارقة، كلُّهم خشوا العدوى، لم يزعجني ذلك لأنّي وضعت نفسي محلّهم ورحت ألملم بقايا الحزن عبر عوالم افتراضية وجمل إشهاريّة.

- حذار من التعازي في زمن الوباء، لا تطعموا الوباء بنفَسِكم، عزّوا من بيوتكم، كما قال إمام المسجد صلُّوا في بيوتكم وكلّ

هذا لم يكن له وقعٌ مثل الكلام الذي قاله ابني الصّغير أنس الذي كان متعلّقا بأبي: "ليت وباء كورونا يُصاب بفيروس كورونا فيموت ونرتاح جميعنا صغيرنا وكبيرنا ونعود كما كُنّا".

رحل أبي وبقيت تفاصيله الجميلة عبر أرجاء منزلنا، لم أتعوَّد بعد فراقهِ، تعرفين يا ماريا أنَّ علاقتي بأبي لا تشبهها علاقة، فأنا اليوم أحنُّ إلى ضحكاتهِ، أحنُّ إلى طفولتي معهُ، كي أرقص فرحا لاستقبال العيد، كي أضع ملابسي الجديدة بجانب وسادتي، كي أخضِّب الحناء في يدي، كي أنهض قبل أذان الفجر وأملأ البيت فرحة بصراخي، بكلامي، بأناشيدي، فيأتيني ليحملني على كتفيهِ، لكن هيهات هيهات أن تعود تلكَ الأيَّام! فأبي قد ذهب وذهب معهُ كلّ شيءٍ جميل، متى سيذهبُ هذا الوباء اللّعين؟

سيذهب ولكن ليس قبل محاكمتهِ يا روفان.

- نحاكم من يا **ماريا**؟ أتهزئين بي!

- ستكونين أنت أحد الشّهود في المحكمة يا روفان، كلّنا سيحضر محاكمتهُ، العالم كلّهُ، لا أحد فوق الأرض سيكون غائبًا، حتّى

أبوك سيعود من قبره ويحضرُ معنا، حقًّا تقولين يا **ماريا**سيحضرُ أبي!

تعرفين يا **ماريا** أنَّ الأب يُشبه تلك الغمامة التي تكون فوق رأسك، إذا أقبل الصَّيفُ حمتكِ من حرارة الألسن ومن شدَّة الظلم والقهر، وإذا أقبل الشّتاء حمتك من برودة النّاس ومن صقيع عواطفهم وكلامهم الموحش، تشعرين بالأمان وهو موجود، وما إن يختفي حتَّى تجدين نفسك تمشين والغمامة غائبة تماما، تحرقك الشَّمس بحرارتها وتلهفُ وجهك الجميل فيتشققُّ وترتسم تجاعيد الزّمن عليهِ، وتحفر قصصها الباهتة، تصيبك شتاؤهم التي لا ترحم أحدا بالودقِ. هكذا هو أبي نُسخة لا تتكرّر، اغتنمي يا **ماريا** كلَّ دقيقة، كلَّ ساعة لمحبّة والدك، بسؤال أو بهدية، وإن كان بعيدا بمكالمة، كم أشتاق له! سأحضر المحاكمة من أجله فقط، وسأترافع له وأتّهم الوباء بأنّه قاسٍ، كيف أمكنه أن يصيب صدر أبي؟ جفّ حلقهُ، كيف أمكنه أن يضيّق عليهِ أنفاسهُ؟ والله في بعض الأحيان أجد نفسي أكلِّمهُ...

وماذا تقولين له يا روفان؟

- أبي اشتقتُ إليكَ كثيرًا، لو عرفت أنَّك ستذهبُ فجأة لتودَّدْتُ إليكَ آلاف المرات بكلامٍ طيّبٍ، لذهبتُ معكَ للمكان الذي تعلّق به قلبك ولطفْتُ بكَ، فقد كانت هذه أمنيتكَ الغالية قبل الموت، سأعتمرُ مكانكَ يا أبي وأطوف على الأيتام!

أتعرفينَ يا **ماريا**؟

كلُّنَا مُشتاق لحبيبهِ، هكذا نحنُ معاندون وهكذا هي الحياة تلعبُ معنا لعبة الشّطرنج لتضحك علينا بعد الموت، لم أعد أفقه شيئا، إذا هم حضروا ما أخبرناهم بحبِّنا وبشوقنا وبلهفتنا، وما إن يغيبوا حتَّى يستفيق ضمير الحبُّ فيها، يستيقظُ العقلُ النَّائم في غياهب الموت، كأنَّ عقولنَا مخدَّرةً أو محقونة بحقنة الأنانيَّة، نعيشُ لأنفسنا، نركضُ وراء الحياة، نقضي مصالحنَا في حلقات لولبيَّة لا تتركنا نلتفتُ لأحبَّائنا، وما إن يطرقُ الموت باب أحبابنا حتَّى نستيقظ من غفلة إهمالنا لهم، من غفلة تقصيرنَا اتّجاههم، تبًّا لنا! وتبًّا لوباء كوفيد-19!

كم أشتاق لجلسة مع أبي يوم كنّا نسكبُ الشّاي المنعنع فيطفو الزّبد عاليا؟ فأسألهُ: كيف أمكنك فعل هذا يا أبي؟ هأنذا أسكبُ الشَّاي مثلما تفعل وأرفعُ يدي عاليًا عاليا، قليل من

الزَّبد، وإذا فعلتها أنتَ يمتلأ الكأس زبدا والشّاي قليلهُ في القاع، كلَّما تذوَّقتهُ يحكي لكَ قصص الصّحراء وجمالهَا، قصص العرب وكرمهم... فكنتَ تقول لي: إنَّها الخِبرةُ يا ابنتي...

يا روفان ما يحتاجه منك الآن الدّعاء فقط، سأتركك الآن أنا منهكة القوى من العمل، تعرفين أنهضُ باكرا وأحتاج للراحة هناك مرضى يحتاجون لوقوفنا...

على هذه الذِّكريات التي غزتني فجأة كمعركة حربٍ بين عقلي وقلبي أخذ الكرى يُداعبُ جفنيّ، كأنَّهُ كومة قطنٍ، أغمض عينيّ المثقلتين تارة وأفتحهما تارة أخرى كأنَّ النّور المنبثق منهما قمر ومن سواد اللّيل ازدان بؤبؤي، وإذا بصوت صديقتي يتلاشى، كأنّهُ صوت آتٍ من أعمقِ بئر...

غفوتُ على أمل أن أستفيق وأجد الشَّمس والقمر لنا ضياء في فرحنا وحزننا، غفوت على أمل أن أستفيق على وجود زوجي **إلياس** بجانبي وأختي **سيدرا** هنا بالبلد، وأن تستفيق مدينتي من فاجعة الوباء الذي أقضّ مضاجع كلّ الورى، غفوت على أمل أن أستفيق والعالم من حولي قد تخلَّص من وبائهِ ودائهِ، عالم سماؤه زرقاء صافية، تحلِّق فيها طيور تحملُ أمنياتنا على

جناحيها المبتورة أجزاؤها، نرقبهَا بأبصارنا تستريحُ فوق تلكَ الكتلة القطنيّة التي نراها هناك بعيدة وترانا أقرب إليها من حبل الوريد، لا ينام فوقها غير الملائكة يسبّحون في نقائهم، كتلة قطنية ننام فوقها ونكتب على سمائها ما نحن إلاَّ عابرو سبيل بمرضٍ أو بوباء، بحادث أو بنومٍ سنغادر، فاتركونا نعيش بسلام... وهل نستطيع أن نكتب على السّماء؟ نعم نستطيعُ ذلك، بأحلامنا التي نخفيها داخل وسائدنا التي ننام عليها، فنحنُ لا نضع أحلامنا التي نرسمها إلاَّ على وسائد نومنا، لماذا الآخرون أحلامهم خارج الوسادة ونحن أصبحت وسائدنا حبلى بالهموم والآلام والتذكُّر؟ كم دموعًا خبَّأناها داخل الوسادة؟ فتركت بقعًا بألوان الملح، فلنحمل تلك الوسادة ولننثُر ما بداخلها خارجًا لنكتب على السّحاب، فلترحل أيُّها الوباء، وهل نستطيعُ أن نكتب على السَّحاب؟

بأيِّ لون؟ فحتَّى لونُ الوباء لا أعرفهُ!

بأيِّ دموعٍ؟ فأعداد الموتى بوباء كوفيد-19 جعلت الدُّموع طُوفانا، هل هو طوفان نوح الذي أخذ من كلِّ زوجين اثنين؟ وهل صعدت الخفافيش أيضا للسّفينة فحلّ ما حلّ بنا الآن؟

هل سيقضي الوباء على كلّ الأشرار بعدما أوقف البورصة وبنوك الربا وبيوت الدَّعارة العالميَّة؟ هل طوفان الدّموع سينظِّف الأرض من أوساخِنا أم أنَّهُ أمر آخر سيقود العالم في سفينة واحدة، إلى وجهة مجهولة؟ ولعلّ هذا سرّ من الأسرار الخفيّة الموجودة في العلبة السّوداء لهذا الدّاء التي يبحثُ عنها الجميع، لعلّها رسالتهُ الأخيرة التي لم نعد نعرف كيف نكتبها! أنكتبها بالبياضِ على السَّواد؟ أم بالسَّوادِ على البياض؟ فحتَّى السّوادُ يضحّي من أجل البياض، ها أنتم تقرؤون السّواد كيف ينثر حروفه على البياضِ، ليستفزّ أرواحكم الضّائعة بين الأنا والآخر... بين الأنا والآخر لم يعد هناك لقاء إلاّ عبر شاشات هواتفنا النّقالة.

فهل بقيَ هناك عشق لهذه الحياة التي أصبحت مملّة بين أربعة جدران، ترمي بنا في غياهب الموت!

لم أعد أعشق هذه الحياة؛ لأنّ العشق أحرقني، وأشعل حربًا ضروسا لحدّ الآن لم تنتهِ بعد... أحرق قلوب كلّ القرى على فقدهم لأحبابهم وفجعهم فيهم، كلّ المدائن حزينة تنعي شيوخها وشبابها، نسائها وفتياتها...

أُتركوني تائهةً أبحث عن ذاتي الهاربة منِّي إليكم وسط زخم الأخبار المتكالبة بين الحقيقة والوهم... أرقبُ أخبار إسبانيا ليطمئنَّ قلبي على زوجي إلياس، كيف أصبحت إسبانيا تعنيني لهذه الدرجة؟

كلاّ؛ إنّه المغترب من يعنيني، لماذا قصص الحبِّ الجميلة لا تكتمل؟ قد قلتها من قبل أنا لا أحبُّ... لأنَّ الحبّ لم يولد بعدُ ننتظر ميلاد المهدي المنتظر ليعلن عنهُ؛ لأنّ حبّنا خدعة مزركشة بألوان الطّيف ما عدا حبّ الأمّ والأب فهو الحقيقة الوحيدة للحبّ السَّرمدي...

دون جدوى، بين العشق للحياة التي تركتنا قبل أن نتركها وبين الحبّ لذواتنا رسائل مطويّة قديمة لم تقرأ لحدِّ الآن، وإذا قُرأت فإنّهم يقرؤونها حروفا باردة خالية من المشاعر. على هذه الهمسات التي غزتني غفوت والأحلام تراودني، غلّقتُ الأبواب وقلت لها: هيت لك لعلّ طيف إلياس يزورني ولو في المنام.

أطلقتُ العنان للأحلام فالواقع الموبوء بات يربكني، وأرخيت لها الزِّمام خوفًا من أن أصطدم بالواقع المرِّ والحال على حاله، هرع وهلع لوباء جعل العالم كومة واحدةً في قبضة يده وقبضتنا

ينفلت منها كلّ أمل ويتلاشى يوما بعد يوم! كلّ يوم ننتظر الخبر السار: "افرحوا وغنّوا لقد اكتشفنا اللّقاح"

لكن هيهات هيهات، فلا أحد يغنّي على شرفاتهِ غير الإسبان، كلّ مساءٍ يخرجونَ قيثاراتهم الخشبيَّة ويُداعبونها بأناملهم، وأصواتهم الشّجية تبعث بالأمل لسكان بالما دي مايورقة. لكن فجأة صارت أفراحنا أقراحا، فجأة أصبحت الثروة أصغر همّنا، بعدما رأينا ذلك المليونير الإيطالي يرمي بنفسهِ من أعلى طابقٍ؛ لأنّهُ وجد نفسه وحيدًا، أخذ الوباء كلّ عائلتهِ، وأخيرًا فهمنا ما جاء في ديننا أنَّ المال زينة والبنون زينة للحياة الدنيا.

ها هو الإيطالي ترك هذه الزينة لكنّهُ لم يدرك الباقيات الصّالحات، لو أدركها لأدرك أنّ هذا الوباء جند من جنود الله. أصبحنا لا نريد شيئا، سوى أن نمشي في شوارعنا كما كُنَّا والضَّحكات تملأ محيَّانا، أصبحنا نخافُ لمس الحجر ولمس الشَّجر، فيضحك الوباء باسمًا ويقول: "قد صافحتكم صباحًا عبر تحيَّة من فلان وقبَّلتكم مساءً بشفاهِ فلان"، هكذا هو الوباء، نخاف إذا ذهبنا في مشوار ما، تمدُّ يدك لتفتح باب السّيارة فتوجس في نفسك خيفة، لعلّ الفيروس سبقني إلى الباب، ثمَّ

تتشجّعُ وتركب، وما إن تجلس فوق الكرسي الجميل حتَّى توجس في نفسكَ خيفة لعلّ الفيروس فوق جلد الكرسي، لعلّ، لعلّ... وهكذا عشنا بمنهج شكٍّ ديكارتي لم نكن نعرف لهُ سميًّا...

آهٍ يا ربّي، لا نريدُ سوى سماء نُحلقُ فيها بأحلامنا الورديَّة، سماء سُحبها لا تتلبَّد ولا تصبح رمادية، نزرعُ المحبَّة في كلِّ مكان وبكلِّ الألوان... هكذا نحنُ وهكذا هي، كلاهما يبحثان عن سلام داخلي.

مَنْ هي؟ كلُّكم معنيٌّ، تسألون من هيَ؟

هي الَّتي تركت الباء مع البراءة، حين حرموها حقوقها وتركوها تعشقُ الحجارة، حين استغلوها وجعلوها وسيلة تبررها الغاية، هي أسئلة تقتات من صبري متسائلة عن سرِّ هذا الوباء:

من هي؟

هي التي تركت الشِّين حين وضعُوا فوق شمسها غربالاً يُخفي الحقيقة، وزيَّفوها وتركوها حرفاً يُنطق على الشفاه مكبَّلاً، يكتب على قطع القماش الأبيض، يلبث حينا ثمّ يغسل بالماء متنكّرا من أقوال شعوبها، ولا يزال عقلي مفتونا بها متسائلا:

من هي؟

هي التي أمسكوا الرَّاء الهاربة منها مرَّات ومرَّات خوفًا من قيودهم، وبطشهم بها، خوفًا من أوبئة تعايدهم كلّ قرنٍ من الزّمن إمّا عبر خنازيرهم أو عبر خفافيشهم، أو عبر مجهول قادم من جهلهم لناموس الطَّبيعة التي تلومهم كلّ إشراقة شمس وتسألهم هي الأخرى:

من هي؟

هي الياء التي أصابتها علّة من علل جهلهم، فأعميت أبصارهم، يأكلون حيوانات حيّة مليئة بالجراثيم ويعلنون مراسم جنازتها بحلول الوباء المفاجئ، ولا يزالُ السُّؤال الذي يختفي وراءه السرُّ الأعظم لحلول هذا الوباء:

من هي؟

هي التَّاء التي ختمت أقفالها على قلوبهم، صمٌّ، بكمٌ، عميٌ، لا أحد يسمع نداءها، لا يتكلَّم عن معاناتها، لا أحد يرى مأساتها بعين البصيرة، تذرف دموعًا ساخنةً هناكَ في فلسطين، في سوريا، في اليمن، في العراق، في انفجار مرفأ بيروت في زمن كورونا، في ليبيا، في طوفان السّودان، ولا يزال العقد تتساقط

منه حبات اللآلئ الثمينة ليدفئوا بها شتاءهم، لعلّكم أدركتم في آخر المطاف من هي؟

هي التي تبعثرت أحرفها، «ب، ش، ر، ي، ة» على سطح الكرة الأرضيّة، وتناثرت حبّات اللآلئ من مقلتيها، حروب ثمّ وباء ثمّ مجهول قادم، كلّ أمر وارد بعدما أكل الجميع من تفاحة آدم-19، لا زلتم لم تعرفوا من هي؟

هي التي تركت الأرض مسقيَّة بالدِّموع وبالدِّماء، وفضَّلت لون السَّماء، فرَّت هاربةً إلى السَّماء لتكتب وتترك التَّاريخ يشهد حروبنا التي كانت مدافعها دبَّابات ورشاشات أصبحت اليوم ضدّ فيروس صغير يغزو العالم في خفية منهُ، لا يحتاج دبّابة ضخمة ولا رشاشًا يغزو أقفاص الصّدور لتفرَّ الطّيور من أقفاصها وتعود إلى عالمها الطّبيعي، من قال لكم: "اسجنوها وزيّنوا بها بيوتكم"؟ من قال لكم قوموا بخرق قانون طبيعتها؟ لا زلتم لم تدركوا من هي؟

هي التي كتبت على قُطن سمائنا: «تمنَّيْتُ أنْ تكون المحبَّة بين بني البشر، لا فرق لعربيٍّ على عجميٍّ ولا أبيض على أسود إلاَّ بالتَّقوى»، هو فيروس صغير يعلِّمنا درسًا في الحياة، سيتّهمهُ

العالم بأكمله أثناء محاكمته بأنّه الوحيد الذي يدمّر جهازنا التّنفسي ويخنقنا ولا يدعُنا نتنفَّس، فيأتي من بين أيدينا ومن خلفنا ليضع شاهدا من أهلنا، ها هو ذا فرويد في أمريكا أسود البشرة لا يستطيع التنفُّس تحت وطأة قدمٍ بيضاء، ينثرُ حروفهُ ببطء شديد ويترك جملتهُ الشَّهيرة: «لا أستطيعُ التنفُّس»، ها هي تفاحة آدم-19 تضعُ قدمها على رقبةِ العالم وتخنقهُ على مهلٍ منها، ها هو العالم ينتظر استفاقتهُ من ظلمهِ وقهره وكذبهِ، حتَّى أصبحنا نتمنَّى أن يكون الصِّدق أحد أعمدة العالم الحقيقيّ والافتراضيّ، وأنْ يكون الوفاء والإخلاص بكلِّ ثانيةٍ من أعمارنا التي تسقط كأوراق الخريف، لكنَّها هذه المرَّة سقطت في كلّ مواسم السّنة، أصبحت الجثث تتناثر كالفراش المبثوث لتعلن قيامتها الأولى حتَّى ظننا أنَّ السَّنوات العجاف حلَّت، فقد أغلقت كلّ دولة أبوابها ونوافذها خشية دخول الفيروس، وعلق كلّ المغتربين.

لكنَّ لا أحد رأى رؤيا يوسف لنُخبِئ الحنطة سبع سنين! لا أحد رأى الفيروسات التي حلَّت بالصّين عام 2003 وهي من عائلة كورونا، ابتداءً من فيروس سارس، لا أحد قرأ عن هذا إلاّ القليل، لا أحد قرأ عن رعب الصُّدور القادم من هناك من مجلَّة العربي...

****

مجلة العربي يوليو 2003 وفنجان قهوة-19

آهٍ، تعبتُ من كلِّ هذا، الأخبار تؤرّقنا كلّ حين، تقضُّ مضاجعنا، أطفأت ذلك التلفاز اللّعين، ثمَّ رميت بخطواتي المتثاقلة صوب أريكتي البيضاء المريحة، استلقيت كطفلٍ صغير، رفعتُ رجليّ حتّى أتخلّص من التّعب، رأسي ممدّد على سطح الأريكة. أخذت الأفكار تزدحم وتتشابك، أفكّر وأفكّر عن مصدر هذا الوباء وعن سرّه، فوجدت نفسي عاجزة مكبَّلة لا أفهم شيئا، حتَى اهتديتُ إلى جوهر الأشياء، ذهبت صوب مكتبتي الضَّخمة، أخذتُ أحملقُ من أسفل إلى أعلى، من اليمين إلى الشّمال ثمَّ استلقيت أرضًا إلى أن راودتني ذكرى فوقفتُ كلمح البصر. تذكّرت مكتبة الجاحظ وسقوطها عليه في آخر أيّامه، جحظت بعيني الكبيرتين ثمّ اقتربت رويدا رويدا من كتاب معنون: بالعربي، فأنا يستهويني كلُّ ما هو عربي، فالعرب يكتبون أسرارا لكنوز يتركونها لتقرأ في زمنٍ آخر غير زمانهم، ويلهثون وراء كتابات غربيّة يبجّلونها أكثر من أهلها. اقتربت من الكتاب وإذا بأنفي يجرُّني جرًّا إلى المطبخ، آه تذكّرتُ نسيت فنجان القهوة، وما أنسانيه إلاَّ الشّيطان. أخذت فنجان القهوة المعطّر بماء

الزّهر لعلّ الحظ يستيقظ معنا ويزهر ياسمين العرب، وحبّة كعكٍ منثور عليها حبَّة الحلاوة. جاءني مخاض القراءة فرفعت بصري للكتاب نفسه الذي أُهدي لي منذ أعوامٍ خلت، ممَّن؟ إنّه هدية من إلياس يعرفني مهوسة بالكتب، قلت في نفسي: "زمن الوباء، أعود لمكتبتي وأقرأ كلَّ الكتب"، وإذا بي أبحث عن كتيِّب أستنشقُ فيه عطر الذّكريات الباقية من حنين مغترب أبقاه وباء كورونا في إسبانيا غريبا يتجرّع مرارة الغربة. أمسكتُ بمجلَّة العربي الصّادرة بالكويت عام 2003، قلَّبت صفحاتها إلى أن وجدت صورة في المجلَّة لفتت انتباهي، صورة عليها نساء ورجال يضعون على وجوههم ما نضعهُ الآن في زمن الوباء، ما يسمّيها الجميع "الكِمامة" مع أنّي لا أوافقهم الرأيَ فالكمَّامة للحيوان، أمَّا ما يضعهُ الإنسان على فمهِ أو نصف وجهه فهو عند المرأة النِّقاب وكانوا يسمونهُ في الجاهليَّة البرقع والقناع، أمَّا الرَّجل فيضع اللِّثام وهو ما نجده منذ القدم، فقد كانوا يتلثَّمون في الحرب والغارات وفي أماكن الغباروالزّوبعات الرّمليّة باللّثام، وفي الأماكن التي لا يريدون فيها أن يعرفهم أحد، لكننّا لا زلنا نجهل عربيَّتنا كما نجهل دواءً لوباء كوفيد-19، وهذا ما قلته قبل قليل

عن العربي يكتب ويكتب والبعض لا يقرأ، هل أصبح الكُتّاب أكثر من القرّاء؟ تلك طامّة أخرى!

لم يسبق للبشرية جمعاء أن وضعت هذا الغطاء الواقي على الوجه في كامل المعمورة، ما جعلني أقرأ المقال ببصيرة لم أقرأ بها من قبل، فما وجدت في هذه المجلَّة أعاد إليَّ بوصلتي التي كنت أتركها تقودني لمشرق الوباء لأنتظر مغيب شمسه على شاطئ الغد، كم كنت مغفّلة لمَّا اعتقدت أنّ اسم الوباء "كورونا"؟ حتّى توجّهت بوصلتي اتّجاه مجلّة العربي في مقالها القديم، فليس هناك جديد وإنّما هناك مواليد لكلِّ شيء، فللحزن مواليد تتكاثر حين الفقد والفجع وللحبِّ مواليد تتزايد بوردة أو بهمسة أو بمعروف تغرسه بأرض جرداء ما إن يتبلل بماء السّماء حتّى تنتعش كلّ القلوب، وللأوبئة مواليد لا تظهر إلاّ عندما نخالف ناموس الطّبيعة البشرية والفطرة الإنسانيّة، فليس هناك عدوّ للإنسان غير الإنسان، من ينقل العدوى للإنسان؟

- إنَّهُ الإنسان!

- من يسرقُ؟

- إنّهُ الإنسان!

- من يكذبُ؟

- إنّهُ الإنسان!

- من يبسطُ رداء الاستعمار؟

- إنَّهُ الإنسان!

- من يرقصُ على جُوعنا؟

- إنّه الإنسان!

- من يُشاهدُ تدمير بيوتنا دون حراك؟

- إنّهُ الإنسان!

- من يبسطُ يدهُ ليُصافح عدوّنا؟

- إنّهُ الإنسان!

- من يصنعُ القنابل النّوويّة ليُطلقها ليلةَ الميلاد؟

- إنّهُ الإنسان!

- من قتل بالدَّبابات والرَّشاشات والطَّائرات؟ الفيروس أم الإنسان؟

فهل عدوّ الإنسان إلاَّ الإنسان؟ فالعالم لا يزالُ في القاع ما دام أنَّ الإنسان عدوّ لأخيهِ الإنسان...

هذا ما حدث لنا مع فيروس كورونا الذي جعلوا له عائلةً وأطلقوا عليها مسمّيات لا نفقهها في عربيّتها، فكورونا الأمّ وكوفيد-19 إحدى المواليد.

هل قرأت هذا من قبل؟ لو كنَّا نقرأ كلّ ما يكتب لكُنَّا مثل البحر لا ينفد ماؤه ولا عطاؤهُ ويلفظ ما لا يحتاجهُ زبدا. كنَّا نظنُّ أنّ الوباء الذي يصيب الجهاز التنفسي هو ما حلّ بنا أواخر 2019، لكنَّ ما وجدته حين مداعبتي لصفحات مجلَّة العربيّ هو ما يشير إلى رعب الصُّدور القادم من الصّين، وكان هذا العنوان في حدّ ذاته بوابة لمعرفة الكثير، كتبه الدّكتور حسان شمسي باشا، وتحدّث عن هذا الوباء العالمي الذي بدأ بالسّارس وهو من عائلة كورونا فحتّى الفيروسات لها عائلات تولد وتتناسل، لعلَّها أغلقت علينا قاعات الحفلات لتعلن عن حفلاتها هي وتُكثر مواليدها وتكثر وفياتنا. نعم هذا ما قاله حسان باشا عن الوباء

عام 2003: «أنّه طار ليتوحَّش في هونج كونج وحملته الطّائرات عبر المحيط ليتحوّل إلى رعب عالمي يهدّد رئات البشرية، وكانت منظمة الصِّحة العالميَّة في ذلك الوقت التي حذَّرت من السَّفر إلى هذا البلد بسبب انتشار الالتهاب الرئوي سارس»، وذكر الدكتور أنّ منظمة الصِّحة العالميَّة أذاعت في آذار 2003 أوّل إنذار بخطر حدوث وباء عالمي بسبب الالتهاب الرئوي سارس، وقد انتشر هذا المرض عبر المطارات الدولية. وهذا ما جعلنا نبحث عن مصدر هذا الوباء الذي قيل عنهُ إنّه حيواني المصدر، يبدو أنّه جاءنا من مدينة الخفافيش، فهل يمكن أن نحاسب أنفسنا ونقول إنّنا أخللنا بناموس الطبيعة؟ فعندما نعادي ناموس الطبيعة ويختل نظامها يولد الفيروس، فالإنسان إنسان والحيوان حيوان، لا يلتقيان إلاَّ في الجانب الإنساني، فارحموا من في الأرض يرحمكم من في السَّماء...

ماذا لو تتبّعنا منظمة الصِّحة العالميّة التي أشارت لوباء كورونا منذ سنين كثيرة؟ وهو ما أكدتهُ مجلَّة العربي 2003 الكويتيَّة، حقيقة مرّة يُواجهُهَا العالم اليوم، هلع وتغيير لنمط حياة بالكامل، فقد اعتقد الكثير من العامّة أنّ فيروس كورونا

هو الفيروس المستجد كوفيد-19 إلاّ أنّ هذا الأخير هو من عائلة فيروسات كورونا، فكورونا ليس مصطلحا وليد 2019 أو 2020 وإنّما ظهر ذلك قبل سبع عشرة سنة، فالكثير من العامّة يطلقون عليه مصطلح كورونا، وكورونا في الحقيقة هو المصطلح العام لمجموع الفيروسات التي ظهرت منذ سنين، وتخصّ الالتهاب الرّئوي أو متلازمة الشرق الأوسط التي تخصّ فيروس سارس الذي اكتشفه طبيب منظمة الصحة العالمية الدكتور "كارلو أرباني" في 29-03-2003، وتوفي بعدما اكتشف أوّل حالة. وبعدما قرأتُ هذه المعلومة تساءلت: "هل وباء سارس كان إنذارا حقيقيا لظهور وباء عالمي هو كوفيد19؟ أم نعيشُ هكذا، نأكل ونشرب ونسافر ولا نفقه من حال العالم وأسراره شيئا؟ فالأسرار كثيرة في هذا العالم، وأنا هنا أبحث عن السرِّ وراء حلول هذا الوباء، أبحث عن السرِّ الذي جعل النّاس لا يمارسون اللّمس، وقبل هذا كنّا نسمع أنّهم يمارسون الحبَّ، هذه الكذبة التي جعلونا نعيش على هامشها عبر المسلسلات والأفلام، أصبحوا لا يمارسون اللّمس، نعم لكنَّهم أصبحوا يمارسون النّظافة على أنّها علامة تجارية جديدة، يُحَبُّ إليها الجميع!"

- هاي، هاي، رويدا رويدا ما بالنا؟ كلّ ما يأتينا بهِ الغرب جديد، توقّفوا برهةً، خذوا نفسًا طويلاً... ولأوّل مرّة ما جاء به الغرب قديم جدا، هو ما جاء به نبينا محمَّد صلى الله عليه وسلم قبل أكثر من 1400 عام من نظافة هو عادة عند المسلم، ولعلَّ هذا ما يدفع بي للجنون، حين تأتيني قناة من قنواتنا العربيّة وتسدي لك معروفًا بنصائح منظمة الصحة العالمية من غسل اليدين بالصَّابون والماء أو فرك اليدين بمطهر كحولي، كأنّهم أتوك بأمر جديد، وا ربَّاه ما هذا؟ ألهذا الحدِّ صرنا نحتفل بتعاليم هي أصلا من تعاليم ديننا؟ اعذروني فأنا لا زلت صغيرة لا أفقه شيئا، أنتظر شاهدا من أهلها حتّى نعود لديننا ونصدِّق بأنّ هذه هي سيرة نبيِّنا، هذه الأحاديث التي استشهدت بها المجلَّة الأمريكيّة "نيوز ويك" وذكرت قوله: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها» وذكرت المجلَّة قول النَّبي محمَّد صلى الله عليه وسلم: «إذا استيقظ أحدكم من نومه، فلا يغمس يده في الإناء حتّى يغسلها ثلاثا، فإنّه لا يدري أين باتت يده»، فحينما رأيت هذه النّصائح تنتقل من صفحة فيسبوك إلى أخرى كأنّ صاحبها قام بإحضار خبر

جديد حينها قلت: "عظم الله أجرنا!" سمعتني أمّي فجأة فقالت: «من مات؟ أصبح الوباء يفتك بنا في كلِّ حين»، فقلت: "لا أحد يا أمّي، مات الضَّمير فينا..."

آهٍ، لا تذكّريني بالماضي الذي نعيش على أنقاضهِ، فبعدما كنَّا نقود العالم أصبح يقودنا، لا أريد حتّى أن أكون ممّن يعيشُ على أنقاض الذّكريات... لأنَّنا لا زلنا نعيش على عتبات التمنّي...كم تمنَّينا ألاَّ يحلّ الحزن مكان السَّعادة يوما، وأنْ لا يكون الوباء ظلاّ يُلاحقنا أينمَا ذهبنا، في منازلنا...

في عملنا...

في معاهدنا...

في بلدنا...

في طرقاتنا...

فنحنُ لا نحلم بالكثير فقط أن يعمَّ السّلام الدّاخلي في كلّ العالم، لا حروب، لا دمار، لا قتل، لا تدمير، لا سُجون، لا قيود، لا أغلال، لا حصار، لا دموع، لا أنين. قلتم إنَّ الفيروس عدوّ خفيّ يقتلنا لا بدّ من التَّصدِّي له جميعًا، فكيف يُسمَّى من يقتلُ

بالدّبابة والرّشاش؟ ويشرّدُ الأطفال ويقذف المنازل؟ وهل عدوّ الإنسان إلاَّ الإنسان؟ فبعدما كانت الحروب خارجيّة ترسم حدود خريطتها المستهدفة أشبارا أشبارا، أصبحت حرب الوباء داخليّة حدودها أقفاص تفتك بالصُّدور فيضيق الصّدر وتُحبسُ الأنفاس وتشرّعُ الأفواه. كلُّنا يريد الهرب من الوباء ومن الأخبار المتراكمة كالجثث، ليس لنا مهرب غير النّوم علَّنا نستيقظ على خبر رحيل الوباء...

هذا ما أخبرونا بهِ بالأمس عن رعبٍ يفتكُ بالصُّدور ويدمّر الجهاز التَّنفسي للإنسان، حتَّى وجدنا أنفسنا عام 2020 قد منعنا من اللّمس ومطالبين بالمباعدة دون سابق إنذار، فالكثير منّا لم يستطيع ذلكَ، فمن عادة البشر اللَّمس والتّقبيل والمعانقة حين اللّقاء، فهل يمكن أن نتصوَّر مدينة يعيشها الأزواج والمتحابّون والعشاق والأهل دون لمس؟ إلاَّ مدينة واحدة هي مدينة الأشباح، فالأشباح هي الوحيدة التي لا تلمس بعضها البعض، هل يمكن أن نكون قد تغلَّبنا على الشَّيطان العابث بالبشر في المدن اللّيلية؟ كم هو جميل أن تغلق مثل تلك الأماكن التي كان فيها اللّمس مباح إلى الصّباح! إلى أن جاءت جرثومة

صغيرة تعلِّمهم قوانين اللّمس في زمن أصبح كلّ شيء مباح، تعلّمهم الحبّ وصلة الأرحام التي فقدناها في زمن الوباء.

- آهٍ من فيروس جعلنا نبحث عنه وعن خصوصياته؟

لم يهنأ لي بال ورحت أسأل وأسأل عن أسرار هذا الوباء، فقد تهتُ بين قضيتين، فبعضهم يقول: "فيروس مصنَّع"، وبعضهم الآخر يقول: "فيروس عجيب!". وأنا على ذلك الحال أبحث عن ضالَّتي من مصدر موثوقٍ حتَّى وجدت صديقا أوصلني بطبيب مختص في علم الفيروسات وعضو في منظمة الصحة العالميَّة، فطرت فرحا؛ لأنَّه سيعْلمني بحقيقة هذا الوباء الذي أعجز الأطباء. رحت أسال الطبيب وهو يجيب بكلّ مودّة، أتعرفون من هو الطّبيب؟ إنَّه البروفيسور يحيى عبد المؤمن مكي الذي حدّثته عمَّا أعرفه عن الوباء ورحت أسأله:

انتشر فيروس كورونا كوفيد-19 في العالم بأكمله، ولم تسلم منه أي دولة، سواء الدّول التي تعرف نظاما صحيًّا متطوّرا أو الدّول التي تعرف نظامًا صحيًّا ضعيفًا، فهل لك يا دكتور أن تعرّف لي فيروس كوفيد-19؟ وما هي الأسباب التي تولّد الفيروسات خصوصا الفيروسات التي تهاجم الجهاز التّنفسي،

كفيروس كوفيد_19؟ وما كدتُ أكملُ تساؤلي حتى انطلق الدكتور مكي بتهدئتي بإجابته:

- بالنسبة للفيروس الذي تسبّب في مرض كوفيد-19 هو سارس كوفيد-2، وهو من عائلة الفيروسات التّاجية Corona أي: كورونا باللاتينية، وعندما نريد أن ندرس الفيروس بالمجهر الإلكتروني يعطينا صورة كصورة التاّج، فتسمّى الفيروسات التّاجية، ومن بين عائلة الفيروسات التي تصيب الإنسان هناك ثماني فيروسات، معظمها من قسم صنف بِيتَا (Beta Coronavirus) وفيه اثنان من نوع (Alpha Coronavirus) فيروس كورونا ألفا، وعدد الفيروسات التي تصيب الإنسان هي سبعة:

فيروس (OC43)، (OC63)، (OC229)، (HKU1) وسارس كوفيد-19 الذي ظهر 2002 و2003 كان عدد وفياته يفوق 15% و(Mers Coronavirus) الذي ظهر عن طريق الخفاش وعن طريق الجمل في المملكة العربيّة السّعودية والخليج والأردن، ويعطي ما يسمّى(Mers (Middle East respiratory syndrome والآخِر هو سارس كوفيد-2 الذي ظهر 2019 و2020 وسبب

الجائحة. وللمعرفة الأكثر شراسة والأكثر قتلا هو Mers (Middle East respiratory syndrome) الذي بلغ عدد وفياته 35%، وسارس كوفيد-1 كان تقريبا 15%، بينما سارس كوفيد-19 أقل من 5% تقريبا حوالي 4% على حسب القارات والدّول. هذه الفيروسات لها غلاف، يمكننا بالماء والصابون أن نزيل هذه الفيروسات من الأيدي أو من أي آلة أو من أدوات لمست الفيروس نطهّرها بالماء والصابون، وإذا استعملنا ماء الكلور (الجافيل) يدمّرها تماما. لها غلاف وعلى الغلاف البروتينات الغلافية، ما يسمّى البروتين (Protéine Spike) سبايك والغلاف (E : Enveloppe) وعندنا (M : La matrice)الغلاف الداخلي وعندنا (N :Nucléocapsid) هي العلبة التي تحتوي على حمض الريبوني كليك (Ribonucleic Acid) فهذه الفيروسات هي موجودة عند الخفافيش والخفافيش حاملة لهذه الفيروسات، وعند الخفافيش في هذه العائلة الكبيرة عندنا أربعة أصناف: (Alpha)، (Beta)، (gama)، (Dalta)، وهي قوية جدا عند الخفافيش وعند بعض الحيوانات الثدية، وكل هذه الفيروسات السّبعة لم تكن منتشرة عند الإنسان، أوّل ما انتشرت 1964م

في ستينات القرن الماضي عند الإنسان، كانت عند الخفافيش، فانتقلت إمّا عن طريق الخنازير، أو عن طريق الفأر أو الكلاب أو الطّيور أو الأسماك، وأخيرا عن طريق Les civides، وفي 2019م سارس كوفيد-2 انتقل عن طريق pangolins، وهذه كلّها حيوانات ثدية، كأنّما الحيوانات الثدّية تهيئ هذا الفيروس ليصيب الإنسان ويلتصق بخلايا الإنسان، ويدخل ويصيب الخلايا، ومن خصوصيته لا يصيب إلاّ الجهاز التّنفسي في الأوّل، ومن بعدها ينتقل للأعضاء الأخرى، ومن خاصية هذا الفيروس يلتصق بالقناة موجودة في الخلايا للجهاز التَّنفسي التي تسمّى (أ س و 2)، ACE-2 وهي الخميرة العكسيّة للأنجيوتنسين (l'enzyme de conversion de type 2) موجودة في الخليّة الرئوية التي تنظِّم الضّغط الدّموي، فعندما تدخل في الخلايا عن طريق هذه القناة تتكاثر الفيروسات داخل الخلية بالملايير في 24 ساعة، 48 ساعة، وعندما تريد أن تخرج تمزّق الخليّة وتعدي وتُطلق ملايير الفيروسات التي تعدي معظم الخلايا والرِّئة، ومن ثمَّ تنطلق إلى الكبد والرّئتين وإلى البنكرياس وإلى القلب، وفي بعض الأحيان إلى الخلايا النّسيجية الدّماغية في

حالة المرض الخطير والعناية المركّزة، كلّ فيروس مهما كان سواء فيروس له غلاف أو ليس له غلاف، لكيْ يتكاثر ويعيش لا بدّ أن يدخل إلى الخليّة، ولكيْ يدخل للخلية... لا يوجد ولا فيروس في الكرة الأرضية له في الوقت نفسه الحمض الريبونيكليك (ADN و ARN) فيروسات لها غلاف هي فيروسات ARN مثل الأنفلونزا، كورونا وعندنا فيروسات بغلاف وهي ADN مثل عائلة Herpes، وعندنا فيروسات دون غلاف ARN (poliovirus) أبوليو وفيروسات دون الغلاف ADL مثلا:

(papillomavirus) ، (adénovirus) وفيروس ARN ولكيْ يتكاثر وينمو يلزم أن يدخل للخلية لكي يغتنم من كلّ مكوّنات الخليّة: الأنزيمات، الطّاقة، الريبوزوم، Appareil de golger، يغتنم الفرصة من هذه المكوّنات، أي ما يسمّى (Boite de lipmaneLa) هي التي تعطي المكوّنات، لكن البكتيريا ليست بحاجة لهذا، البكتيريا عندما تدخل إلى الجسم سواء في الأنف أو الفم أو المعدّة وفي القلب تتكاثر لوحدها، البكتيريا هي خلية حيّة، واحدة في الحليب تعطي مليارا، في اللّحم في البيض في المايونيز؛ لأّن في الوقت نفسه البكتيريا عندها ADN وARN.

كلّما أجابني الدكتور مكّي عن سؤالٍ أنطلق لسؤال آخر:

-كيف تمكّن الفيروس من تصميم غلاف له لينتشر على نطاق أوسع وبسرعة؟

يجيبني الدكتور مكي عبد المؤمن:

هذا الفيروس انتشر بشدّة ليصيب كلّ العالم وأصاب ما يفوق 130 مليون، تقريبا 3 ملايين وفيات إلى حدّ اليوم ونحن 06 أبريل 2021م، فالفيروس تمكّن من تصميم مكوّناته الغلافية وبروتينات وأصاب خلايا الإنسان، وتمكّن من السّيطرة على الخلايا ودخل فيها ورغَّم الخلايا أن تتقبّله، وأصبح متأقلمًا، بما أنّه لم يكن موجودا سابقا، ولم يكن هناك إنسان بمناعة قوية في ذلك الوقت، فهنا أصبح الفيروس ينتشر بشدّة. وأحسن مثال لهذا هو فيروس الإنفلونزا وأوّل جائحة إنفلونزا 1917م الذي أدى بوفيات عشرات الملايين، هناك من يقول "خمسين مليون" وهناك من يقول "سبعين مليون وفيات" آنذاك لهذا الفيروس، وذلك لعدم وجود مناعة سابقة وعدم وجود أي لقاح ضده، سيطر وكُلّ القارات أصيبت وكلّ الأشخاص، لم يبقَ ولا رئيس ولا مرؤوس ولا مواطن ولا مسلم ولا كافر ولا مسيحي ولا

يهودي ولا أبيض ولا أسود، هذا الفيروس أراد أن يجعل العدل في الكرة الأرضيّة ويصيب ما يصيب.

لكن ما لاحظناه هو أنّ الإصابات أقل بكثير في العالم العربي وإفريقيا وحتّى في آسيا إذا قارناه بأوروبا وأمريكا والسّبب في نظريتي الخاصّة أنّ هناك أرضية خصبة، وذلك بسبب النّسيج التّوافقي المناعي

Les antigènes du système HLA Histocompatibilite) Leuvocytaire Antigène) هذا النّظام المناعي الموجود في خلايا الكويرات البيضاء، الذي ربما عند الأوروبي القوقازي والأمريكي واللاتيني ربما الأرضية تسهل ذلك، وهذا من خبراتنا في عدد كبير من الفيروسات، مثلا:

(Epstein–Barr virus) كذلك (parvovirus B19)الذي يسبّب السّرطان عند المغاربة: (الجزائر، المغرب، تونس) وعند جنوب آسيا بينما في أوروبا لا يعطي سرطانا. وهنا نظريتي تعطيني فكرة، لماذا الأوروبيون الأكثر قتلا والفيروس الأكثر انتشارا؟ بينما نحن في الموجة الثالثة، أنا درست هذه النظرية، ونحن في الموجة الثالثة، بينما العالم العربي وجنوب إفريقيا أقلّ ضررا وانتشارا،

وربما نتساءل: هل الجوّ البارد كان قاسيا وساعد على انتشار الوباء؟ وهناك أبحاث أثبتت ذلك.

- ما هي الأعراض التي تظهر على المصاب؟ وهل يمكن للعدوى أن تنتقل من شخص إلى آخر؟

نعم إذا درسنا فيروس الحميراء بوحمرون هو أصعب فيروس في الانتشار، شخص قد يعدي في قاعة أو حافلة عشرين شخصا، بينما الإنفلونزا شخص يعدي اثنين، عندما نتحدث عن المرض نقول: "كوفيد-19"، وعندما نتحدث عن الفيروس نقول: "سارس Cov-2" فسارس كوفيد-2 شخص مصاب يستطيع أن يصيب ثلاثة أشخاص إلى أربعة أشخاص لحد الآن حسب المعلومة المنشورة، لكن ثلاثة أشخاص، أربعة أشخاص يعدون أربعين شخصا إلى خمسين شخصا، وهذا إذا كان هناك حفل أو اجتماع، والفيروس يتنقل عن طريق اللُّعاب، عن طريق اللمس، النّدى من الأنف، من الفم وخاصّة في فصل الشتاء، ولهذا نجد هذه الفيروسات التي تصيب الجهاز التّنفسي خاصّة أكثر انتشارا في الخريف والشتاء نظرا لشدة البرودة، فالهواء الذي يخرج كالضّباب من الفم والأنف ونراه على زجاج النّظارات

ونراه عندما يتكلّم الإنسان منتشرا بكثافة، يتسبب في انتشار العدوى من شخص لآخر، وخاصّة إذا تقابلنا أو تصافحنا والأيادي مملوءة بالفيروس أو إذا أكلنا مع إنسان، أو إذا جلسنا مع إنسان، فالعدوى تنتشر بهذه الصفة.

- هل يمكن اعتبار وباء سارس الذي ظهر عام 2003 وحذرت منه منظمة الصحة العالمية أن يكون ممهدا لظهور كوفيد-19 كونهما من عائلة كورونا نفسها؟

- نعم سارس كوفيد الأوّل 2002- 2003 هو القناة نفسها القابلة لسارس كوفيد-2، بينما

Mers (Middle East respiratory syndrome) الذي تنقل عن طريق الجمل، فالقناة القابلة لهذا الفيروس هي القناة نفسها التي يستعملها فيروس الأنفلونزا، بينما معك حقّ، ربّما سارس كوفيد-1 جهّز ونظّم في خلايا الإنسان وأعطى معلومة حقيقية ربّما عن تركيبة الفيروس وتركيبة خلية الإنسان، وللفيروس ذكاء جدّ قويّ وربما استعمل مكوّنات السارس يتنقل فيروس كان موجودا عند الخفاش ولا ينتقل إلى الإنسان إلاّ عن طريق تركيبة نظامية كونهُ تأقلم مع الإنسان، اتصال سابق، لكن الممر

عن طريق حيوان ثدي كما قلنا لكن ربّما في بعض الحالات التنقُّل من الخفاش إلى الإنسان، ونحن نعلم كيف يعيش الصينيون والآسيويون معظم الوقت، ونظرا للضيق في البيوت وفي المزارع وفي المزرعة نفسها التي تُربى فيها الخفافيش، الكلاب القطط، كله يعيش في المزرعة نفسها وفي مكان الثدييات نفسه، فالاختلاط ما بين هذه الحيوانات ومع الإنسان الذي يحتك بهما، ربما الفيروس تأقلم عند أي مربٍّ لهذه الحيوانات وأصبح متأقلما معه وانتشر بهذه الشدّة.

ونحن نعلم بأنّ الخبراء الذين زاروا الصين طوال شهر فبراير الماضي أثبتوا أن الفيروس لم يخرج من مختبر عن خطأ أو عمدٍ، وإنما انتقل من الخفاش إلى حيوان البنغول Pangolin الذي هو لحكمه طازج وغالٍ ويحبون أن يُأكل في آسيا كثيرا.

تتغيّر لكي تمنع من المناعة، لكي تحمي نفسها ويبقى الفيروس هو القويّ وهو الذي يتمكّن من الإنسان حتّى لا يتأثّر بمناعة الإنسان الذي طوّرها، فهنا يتغير الفيروس، وعندنا أحسن مثل هو مقاومة البكتيريا لـ: Les antibiotiques، فكذلك نحن عندنا فيروسات، مقاومة الفيروس هو كيف يهرب من المناعة؟ مكون

الغلاف Protéine S أو NProtéine أو EProtéine حتى لا تهاجمه المناعة التي طورها الإنسان عندما يصاب فكلّ إنسان يصاب بأيّ فيروس ما، الجهاز المناعي بعد أسبوع أو أسبوعين يتطور حتى يدافع ويدمّر الفيروس، وهذا ما يحدث لنا عندما نصاب بالإنفلونزا أو أي عدوى فيشفى الإنسان، لكن الفيروس يريد أن يطوّر نفسه فيتغيَّر حتّى يهرب للمناعة وينجو من المناعة أن تدمّره لكي يبقى حيًّا.

- هل توجد فيروسات سابقة تاريخيا منذ أقدم وباء الذي ظهر في أثينا، تمّ اكتشاف اللّقاح لها وكان ناجعًا 100%؟

عندنا فيروسات قديمة جدا مثل فيروسات (papillomavirus) عندنا فيروسات الكلب، لاراش، وجدنا أول لقاح باستور، عندنا فيروس الجدري Laأكبر عدوى الجدري عفانا الله وإيّاكم، الذي دمّر أمما وقارات، وصلنا إلى لقاح، وبالنسبة لهذا معجزة ربّانيّة في العلم والمعرفة، فالعلماء في سنة الجائحة نفسها التي أصابت 130 مليون شخص وقتلت 3 ملايين شخص في العالم، وجدنا لقاحا في أقلّ من سنة، وهذا تطوّر جدّ مفرح ومفيد، وما زال تطوير اللقاحات وحتّى فيه أبحاث عن الأدوية لنصل إلى دواء إن

شاء الله. أصبح عندنا ستة لقاحات اليوم في السوق، لقاح فايزر، ولقاح مودرن، ناقلة جونسون الأمريكي، أسترازينيكا، سبوتنيك الروسي، الصيني صينوبان، والصين عندها لقاحات أخرى.

- ما هي سبل الوقاية من السّلالة الجديدة؟

سبل الوقاية من هذا الفيروس كوفيد-19 أو كل الفيروسات هو القناع، تطهير الأيادي أمر أساسي، خاصة عندما نريد أن نقرّب الأيادي إلى الفم أو الأنف أو الأعين نغسل الأيادي قبل الأكل أو للشراب نغسل الأيادي، وعند نزع القناع لا ننزعه من الأمام لأن الأمام مليء بالفيروسات ننزع من الخيط من جهة الأذن اليمنى أو اليسرى، عدم التقبيل، عدم الاجتماع، احترام بُعد المسافة. وحاليا عدد كبير من الدول تتبع التلقيح، وبهذه الوسائل الوقائية من قناع وتطهير وبعد المسافة وبالتلقيح سوف نقضي على الجائحة. وأنا عندي يقين بالله سبحانه وتعالى سوف نقضي على الجائحة في آخر 2022م؛ لأنه نكون قد لقحنا 50% في الدول والأحسن هو الوصول إلى 70% والأحسن من الأحسن نصل لـ: 90% لمواطني أيّ دولة.

- كيف واجه الأطباء هذا الفيروس وهم يصادفون يوميا آلاف الحالات؟

الأطباء هم جند من جنود الله وهم الثوار الحقيقيون والمجاهدون قاوموا الفيروس في بداية الجائحة وأصيبوا دون معرفة هذا الفيروس، ورحمة الله على الأطباء والممرضين والممرضات توفوا وهم يعالجون المرضى، ولم يعلموا قبلا بأنّه سارس كوفيد-19 وعندنا عدد كبير، والجزائر متضرّرة من وفيات الأطباء والممرضين، وكلّ دولة العظمى والفقيرة والضعيفة، رحمة الله عليهم، نحتسبهم عند الله شهداء، لكن من بعدما علمنا ما هو الفيروس والوسائل، العديد من الأطباء قاوموا بالوسائل المتاحة من تعقيم وألبسة واقية، عدد كبير من الأطباء قاوموا ذلك بتطهير الأيادي واستعمال ملابس خاصّة لعلاج المرضى، وهنا كلّ الشّكر والامتنان للأطباء وأنا أتمنى جائزة نوبل أن تعطى للأطباء في العالم الذين قاوموا هذا الفيروس والعلماء الذين اكتشفوا اللّقاح.

- ما هي الحلول التي يمكن تبنيها أو نهجها للخروج من الأزمة بأقل الأضرار؟

للخروج من هذه الأزمة لا بد من تدعيم اللقاح بالملايين، كل دولة تلقّح على الأقل 70% من السّكان، استعمال القناع، تلقيح الأطباء، المعلمين، مربيات الأطفال، المدارس، دور الحضانة، السلك الطبي، وعلى الدّول أن تجهز نفسها، هذا درس عظيم وقويّ لكلّ الدول. لماذا الصين احتوت الأمر؟ الصّين وما أعظم دولة الصين! أقل من 100 ألف مصاب وأقل من 15 ألف وفاة، كيف عملت الصين؟ الصين جهزت نفسها لأنها أخذت الدروس من 2002، 2003 فكانت الصين مجهزة لأنها أخذت الدروس من سارس كوفيد-1 2002 وإنفلونزا الخنازير 2009 وميرس 2012، كانت الصِّين مجهزة ولها ثوابت وضوابط، فقررت غلق كل المدن، وطلبت من الجيش أن يتدخل، ولا صيني خرج مدّة ثلاثة أشهر ورأينا تلاشي أمريكا ومعاناتها، أكبر عدد وفيات يفوق 500 ألف وفاة، وأزمة وجود الأقنعة والدواء للعناية المركزة، كارثة لأوروبا وأمريكا، فعلى كل الدول وكل المسؤولين؛ رؤساء وزارة الصحة، وزارة الدّاخلية، وزارة العمران، وزارة الصناعة، تطوير برامج كل المستشفيات، تطوير أجهزة العيادة.

يلزم على الدّول العربية والإفريقية التي هي قارة ودول غنية، ودول قوية بالمال والعلم والمعرفة، يجب تطوير البحث العلمي ودعم العلماء في كل المجالات، لكي نصل إلى مصنع للقاحات، ومخابر علمية للأبحاث الطبية والأبحاث الصيدلانية والأبحاث البيطرية والأبحاث الفلاحية لتطوير الفلاحة، الأبحاث العلمية لأن الكل متماسك، لا نستطيع أن نكون متقدمين في الصحة ولا نكون متقدمين في الصناعة ولا في الهندسة، فعلى رؤساء الدول أن يستيقظوا وأن يعوا ويتفهموا بأن السلاح لم يكن نافعا، والمال الذي لا يستعمل في العلم ليس بنافع ويغيروا من نمط السياسة والرؤية، لتطوير الصحة والتعليم، فعلى كلّ المسؤولين أن يدعّموا العلماء ويشجّعوا العلم..

نسأل الله أن يحمينا من هذا الوباء وأن يرفع عنا هذا الوباء وتعيش الأمم بخير وصحة وعافية تكون لنا القوّة لنقاوم أيّ جائحة أخرى.

وعلى هذا الدُّعاء الذي ختم به الدكتور مكي عبد المؤمن اطمأنّ قلبي، وشعرت أنّي تقمصت ثوب صحفيَّة بارعة، لا لشيء فقط لأنّ الوباء سيطر علينا جميعا، بعدها تركت كلّ ما يحزنني

وعدت لمدينتي الجميلة التي عمّها شبح الحزن والتي لم يتوقّع أحد أن يصيبها الوباء، فقد كان هواؤها ينعش الرُّوح ويثلج الصَّدر، كلّما زرت أحد الأحباب تحمل معك باقة ورد منعشة، فمدينتي اسمها: مدينة الورود.

****

ماريا ذات مساء بنكهة الوباء...

كانت مدينتي البليدة من أجمل المدن الجزائرية، أينما ولَّيتَ وجهك تتفتّحُ لك الورود الحمراء والبيضاء والصَّفراء لتلقي عليك تحيّة الأمراءِ، بنفسجٌ وياسمين، تلك هي ورود مدينتي التي لا تشبهها مدينة بالعالم فهي المدينة الملقَّبة بمدينة الورود. صباحها ياسمين ومساؤها عطر البنفسج وليلها عبق من تاريخ الملوك. ربيعها ممتدّ طول السَّنة لثمارها اليانعة وورودها المتنوّعة، تُزيّنُها جبال الشّريعَة عندما تتزيّن بحلتها البيضاء شتاءً، فتظنُّ نفسك في أشهر بلدان العالم، إنّها جبال تأسرك بمناظرها الطبيعيّة وبحلّتها البيضاء التي تهبك فرصة التزحلق في ثلجها. وما إن تقترب من منطقة الشفّة حتى ترى قردة الماغو هنا وهناك، ينتظرونك للّعبِ معهم، كيف لا تكون هذه المدينة ساحرة؟ وقد أسَّسها الأندلسيُّون في القرن السَّادس عشر، إنَّها مدينة تدغدغ مشاعرك بالحبِّ، فأينما حلَّت الورود حلّ الحبّ، فالورود هدايا المحبِّين...

آهٍ، تُذكّرني بأجمل باقة وردٍ قدّمت لي يوم خطوبتي، ويوم كنت أسوق سيّارتي ومررت بجانب أشجار الياسمين الأبيض،

فتناثرت فوق زجاج السّيارة حتّى ظننت أنَّني في غرفة رومانسية مجهزة، تتساقط فجأة الورود فوقك من كلِّ جانب. حقيقة لا يوجد مكان يفاجئك لوحده إلاَّ مدينة الورود السّاحرة التي تدغدغ أنفك رائحة زهر برتقالها...

- يا الله؛ كم هي ساحرة وجميلة هذه المدينة المليئة بكلّ أنواع الورود! قريبًا جدًا سيأتيها مشاهير العالم ليعلنوا أفراحهم فيها، لكنّها تحتاج لاهتمام أكبر حتّى تستقطب سيّاحًا أكثر...

هذه المدينة بورودها الجميلة ورائحة عطرها الزّكيّة، فاجأها وباء كوفيد-19 وحلّ في كلّ زاويةٍ من زواياها، سكن الحجر والشّجر. الآن أصبحت أصدِّق أنّ الموت يختار فقط الطّيبين والأجمل، فقد اختار المدينة الجميلة، التي يتنفَّس سكانها عبق الورود ويعيشون الرّومانسية طول أيّام السّنة...

تعيشُ مثل باقي مدن الجزائر هاجسًا بين مصدّق ومكذّب لهذا الوباء الذي ينعته الجميع باللَّعين، أصبحت هذه المدينة خالية من مظاهر الحياة، كراسيها الخشبية في وسط المدينة تبدو غريبة غُربة هذا الوباء القادم من الشّرق، فقد كنَّا لا نجد مكانا لنجلس عليه من كثرة الجالسين المستمتعين بمناظرها، ما إن

نرى مكانا فارغًا حتّى نهرول إليه، وما إن نصل حتّى نجد الكراسي ممتلئة على الآخر. وذلك القطار السَّريع تراموای باللّونين الأصفر الفاقع والأسود الذي يمرُّ أمامك فترى من خلال زجاجه الشّفاف كلّ أصناف البشر، البعض جالس والبعض الآخر يستهوي الوقوف. لعلّ هذه الكراسي أصبحت موطن الأشباح، تمشي في شوارع المدينة فتجدها خاوية على عروشها فتسأل نفسك: "هل أصابها عذاب الأقوام البائدة؟ أم أنَّها أصبحت مدينة تسكنها الأشباح؟" الكلّ لزم بيتهُ لا يخرجون إلاَّ لشراءِ ما يملأ بطونهم ويسدّ رمقهم... أصبح أكبر همِّهم ذهاب الوباء، لم يكن أحد يدري أنّ هذا الوباء ستطول مدّتهُ إلى شهور. طوّقوا الحصار على المدينة، لا دخول لا خروج، أصبح الوباء شبيهًا بالحرب إلاّ أنّ العدو في الحرب ظاهر، أمّا الوباء فهو عدوّ مخفيّ، كأنّهُ يلعبُ معنا لعبة التّخفِّي، لا تدري متى يُصيبكَ! لا يظهر إلاّ في اليوم الرابع عشر كما حدث يوم 18-05-2020 لصديقتي الحسناء الجميلة الطّيبة وفاء بوديسة صاحبة الثَّامن والعشرين ربيعًا الحامل في شهرها الثَّامن، لم يبقَ لموعد ولادتها إلاَّ شهر أو أقلَّه. أخذت تجهزّ ملابس صغيرها القادم إلى هذا العالم وكلُّها فرح

رغم تعب العمل الذي أنهكها بسبب اللّباس الواقي من الوباء، يرتدونه منذ دخولهم المستشفى حتّى خروجهم مساءً، ممّا زاد عليها التّعب والإرهاق، فقد كانت ضمن الصُّفوف الأولى للجيش الأبيض لمواجهة جائحة كورونا. شعرت وفاء بتعبٍ شديد ذات مساء وكان بنكهةِ الوباء، فذهبت لمدير مستشفى رأس الواد بمحافظة برج بوعريريج الواقعة شرق الجزائر، معتقدة أنَّها ستوقظُ جانبهُ الإنساني ويرأفُ بحالهَا وحالِ جنينها الذي لا يسمع إلاَّ الحديث عن الوباء، فالجنين في بطنِ أمّهِ يسمع كلّ شيء. طلبت من مديرها فترة راحة لأنّها شعرت بالتّعب الشّديد، فهي حامل لمولود ولم تكن تدري أنّها ستحمل الوباء، رفض مدير المستشفى طلبها فواصلت عملها خشية فصلها عن عملها، فالجميع يعيش أزمة الفقر ومكابدة الحياة في إيجاد وظيفة لائقة، لم يجد زوجها ما يفعله اتّجاه معاناة زوجته الحامل إلاَّ أن يستأجر لها مسكنا قريبًا من المستشفى، لكنَّ الوباء فاجأها ودون سابق إنذار وجدت الطّبيبة الجميلة المُضحيّة أنّها تحمل إلى جانب جنينها الوباء الذي انتقل إليها عبر المرضى. لم تمر أيَّام حتّى أصيبت بإرهاقٍ شديد جعلهَا تدخل المستشفى ولكن ليس

كعادتها، فمن عادتها المرور على المرضى وتفقد حالتهم الصحيّة وهم على أسرّتهم، واليوم أصبحت وفاء فوق سرير يمرّ عليها الأطبّاء، ولأوّل مرّة تنظر للأطباء كما كان ينظرُ إليها المرضى وهم طريحو الفراش، كم هو شعور مؤلم حقًّا! لا يحسّ به إلاّ من جربّه كما يقول المثل الشّعبي: "ما يحسّ بالجمرة غير لكواته". وبعد أيّام لم تستطع الشّهيدة المقاومة فقد أنهكت قواها في العمل. لقيت الشّهيدة ربَّها، وقبل وفاتها تركت وصيّتها الأخيرة لعمّتها وأوصتها أن تهتم بابنتها الصّغيرة **أنابيس** البالغة من العمر عامين. وعلى هذا الخبر الذي تلقّفته وسائل الإعلام بسرعة البرق ظهرت موجة غضب من قبل الشّعب كلّه الذي تعاطف مع هذه الطّبيبة الحامل التي لم تجد الرحمة من مدير المستشفى الذي ظنَّ أنّه بإبقائها سيوفّر أكبر عدد من الأطباء، كم كان ساذجًا! ولأنّ الشّعب يدرك قوانين بلاده كان على يقين بالمادّة الثامنة التي «تمنح الأولوية في العطلة الاستثنائية للنّساء الحوامل والنِّساء المتكفِّلات بتربيّة أبنائهنَّ الصّغار، وكذا للأشخاص المصابين بأمراض مزمنة، وأولئك الذين يعانون هشاشة صحيَّة»، أظنُّ أنّهم نسوا قانون الرّحمة الإلهي قبل قانون المادّة

الثامنة. وبعد ساعاتٍ من وفاة الطّبيبة حدث ما لم يكن في الحسبان، دخلت العائلة بأكملها هاجس انتقال الوباء، ذهبوا للمستشفى على الفور وبعد إجراء فحوصات دقيقة وجدت العائلة سلامتها إلاَّ ابنة الطبيبة الصّغيرة **أناييس** أصابها الوباء فبقيت في المستشفى مدّة عشرة أيّام تلقى العلاج. تعيش العائلة ألمًا متجدّدا يولد كلّ صباح ليحيي ذكرى روح الفقيدة. الوباء لا يخطئ أحدا، لا يترك صغيرًا ولا كبيرًا إلاّ أرداه جثّة هامدة، لا يعرف كاذبًا ولا صادقا، أحيانًا ينتقل مثل الفراشة هنا وهناك يقبض الأرواح ومن رحيقها يترك ذكرى جميلة تذكر على الألسن، يردِّدُها الجميع: "كم أنت جميلة يا وفاء! وجهك كأنَّهُ الشَّمس تشرق من ابتسامتك، ويهلّ رمضان من طيبتك، عطاؤك بحر، تضحيتك وسام، في زمن سوَّلت لنا فيه أنفسنا أنَّ التّضحيّة ولَّت، ها نحنُ وجدناك تبِعت نهج جدَّاتك في التّضحية من أجل الوطن، كم هنَّ فخورات بك شهيدات الوطن إبَّان ثورة التّحرير الجزائريّة! هنَّ كانت معركتهنَّ مع الاحتلال الفرنسي معركة وجهًا لوجه، وأنت معركتك ضدَّ وباء كوفيد-19، فأنت تشبهين الشَّهيدة مليكة قايد الشُّجاعة التي جمعت

بين مهنة التَّمريض والكفاح المسلح، والشَّهيدة لالة فاطمة نسومر تبتسم لك من هناك، والشّهيدة حسيبة بن بوعلي وجميلة بوعزّة وجميلة بو باشا وغيرهنَّ كثيرات، حملن القضيَّة الجزائرية في صدورهنَّ ووقفن وقفة رجل واحد في وجه الاحتلال غير آبهات بجيوشهِ الجرّارة ودبَّاباته المزعجة وطائراته المقاتلة، تعرَّضن لأبشع أنواع التَّعذيب المنافي لحقوق الإنسان واستشهدن بشرف في ساحة المعركة. ها أنت تبعتِ نهجهنَّ، أصبحنا نفتخر بك يا وفاءِ".

وبعد نشر أخبار عن إصابة الطّفلة **أنايس** بالوباء، أصبح الكلُّ يترقّب ويرفع أكفَّ التضرُّع لهذه الطفلة الصّغيرة التي تبكي أمّها ليل نهار، فنزلت رحمة الله وشفيت **أنايس** من وباء كوفيد-19 ولله الحمد. أخذها والدها شوقي وهو يحمد الله الذي نجّى ابنته من الوباء وقطع على نفسهِ عهدًا بأن يربّيها على درب أمّها نفسه في سبيل الوطن إن استدعت الظّروف.

لم تكن حالة الطّبيبة الوحيدة في البلاد أو العالم، بل كانت هناك حالات كثيرة مشابهة عشنا على وقعها وتألّمنا لحدوثها، كانت الشَّهيدة وفيّة لعملها ولبلدها فجاءها الاستحقاق مرتين،

الاستحقاق الأوّل سماوي نالت الشّهادة والتحقت بزمرة الشُّهداء، والثَّاني وسام الاستحقاق الوطني بدرجة عشير من رئيس الجمهورية للدولة الجزائريّة.

بات الجميع يسأل نفسهُ عن هذا الوباء الذي فاجأ الجميع وأخذ القريب والبعيد، هذا الوباء الذي أنهك حتّى الدول العظمى وجعلها تلهث وراء اكتشاف اللِّقاح، جعل الدّول المتطوّرة التي كانت تقول: "أنا وأنا" تقول: "هو" وتتراجعُ للخلفِ، أين علمهم الذي بلغوا بهِ المريخ؟ والله ما أوتينا وما أوتوا من العلم إلاّ قليلا، جهلنا مصدر هذا الوباء الذي جعلنا نمكث في كهوفنا وننتظرُ الآخر ليكتشف اللّقاح...

****

ومن ذكرى صديقتي وفاء التي تركت مكانها في قلوبنا استيقظت على صوت هاتفي يرنُّ من ذلك المغترب القابع وراء البحار، ذلك الظلُّ الذي يعكس يوميات مغتربين يعانون هاجس الخوف من الإصابة بالوباء، رغم اختلاف جنسياتهم وعاداتهم وتقاليدهم، فقد وحّد بينهم الخوف وجعلهم يجلسون لساعات

طويلة مشدوهين يتقصُّون أخبار هذا الوباء ودرجات ارتفاعه هنا وهناك... كأنّه وحشٌ يرمي برجله من أقصى العالم إلى أقصاه...

- ألو، كيف حال الأيادي والشّفاه والأذرع و...؟ فقلت: تباعدت، الكلُّ في مربّعهِ، دخل النَّاس

كهوفهم ومكثُوا، تُقلِبُهم الأخبار ذات اليمين وذات الشِّمال وجسدهم باسط ذراعيه ليتنفَّسُوا، الكلُّ يتساءل هنا بالمهجر: "كم سنمكث؟"

-وهل يعرفُ النَّائم كم سيمكث؟ هل يعرفُ المخدَّرُ متى يستفيق؟

أصبحنا ننفصلُ اجتماعيا، مكانيا، قل كليًّا ولا تخش لومة لائم، نتّصل افتراضيا، وهذا طبيعي لأنَّنا في كهفنا نائمون. هل تعرفون كيف يتواصل النَّائمون؟ يحلمون، وهذا ينافي ناموس الحقيقة الواقعية. أظنّ أنّنا نعيش تجربة جديدة، نبتعد عن ديننا دون أن نشعر، فقد قطعنا صلة أرحامنا فأصبحت أعمارنا تقصر، توقّف العدُّ التَّصاعدي لخطانا التي كانت تمحو خطايانا، أصبحنا نسمع جملة ترتجف منها صمّامات الأذن لم

نسمعها من قبلُ، لو قالها أحد الأئمّة لكفّرناهُ، ها هو يصدح قائلاً: "صلّوا في بيوتكم"، وبعدما كنّا نسدُّ الفُرَج أثناء صلاتنا أصبحنا نضع الفُرج مسافة متر ونصف، أصبحنا مثقلين بالذّنوب، ماذا لو لم تفتح مكَّة أبوابها؟ كيف تنظِّفون أنفسكم؟ سيصبح الواحد منَّا يحمل أثقالاً كثيرة!

- دعينا يا **ماريا** من كلامك الذي لا يكتمل فرحمة الله واسعة، أسمعيني كلامك الذي أنتظره نهاية كلّ يوم شاقٍ ليذهِب عنّي تعبي...

- ما هي أخبار سِيدْرَا؟

- قهقهتُ: تسأل عن سِيدْرَا العالقة ونسيت نفسك، أنت أيضا عالق...

- أنا رجل أدبِّر أموري بأيِّ طريقة، أمَّا هي امرأة، ماذا تفعل لو نفد مالها؟

- هكذا أنت ترى النّقص كلُّه في المرأة، فكِّر في نفسك أنت في بلاد الغربة لا رحمة ولا شفقة، لقد تكفَّلت بها كلّيا السَّفارة في الأردن...

- حظُّها جيِّد...

- ليست هي فقط، بل تكفّلت بكلِّ الجالية التي سافرت معها وعلقت هناك بسبب وباء كوفيد-19...

- الحمد لله، هل يهتمون بهم هناك أم...؟

- أمورهم جيِّدة، أخذوهم إلى فندق خمس نجوم، به خدم، المأكولات الأردنيَّة شهيّة ولذيذة...

- الحمد لله، لو لم أسمع هذا منك لما صدقت هذا الكلام؛ لأنّي رأيت بعض الدّول لم تهتم بجاليتها أبدا، يتوسَّلون في الشوارع من أجل شراء لقمة تسدُّ رمق جوعهم، لا يجدون حتَّى أماكن للاستحمام...

صوت أمّي إنّها تناديني: **ماريا، ماريا، ماريا...**

- هيّا وداعًا أقفل الخط، سأعاود الاتّصال مساءً.

- وداعًا...

رفعتُ رأسي من وسادتي البيضاء التي عانقت أحلامي مع أمل لقاء زوجي إلياس، أبني فوقها برجا عاليا من الأمنيات وأتخيّلها

حقيقة ماثلة أمام عيني. كنت أتمنّى أن يذهب الوباء ويعيش العالم في سلام، لكنِّي وجدت نفسي مع هذه الأمنيات كأنّي أخبئها تحت وسادتي، فليس لنا إلاّ وسادة تُخفي آلامنا وأوجاعنا، وتريحنا بعض الشيء، فكم من دموعٍ سُكبت على تلك الوسادة وخبَّأتها! كم من تنهيدة أخفتها تلك الوسادة؟ كم من أسرار كتمتها؟ تركت وسادتي ولبيت نداء أمّي...

إنَّهُ صوت قادم من حجرة أمِّي، توقظني من أحلامي لأحقّق أمنياتي، فالأمنيات تتجوّل في خُلدي، ما إن أمسك واحدة حتّى تهرب منّي الأخرى، أمسكت أمنية رحيل وباء كوفيد-19 وأحكمتُ القبضة دون أن أخنق أمنيتي، تركتها جانبا ثمَّ غسلت وجهي بماء التّفاؤل على أمل أن ألتقي بوجه باسم أمامي، ينثر عطر الأمل في الطّرق. في تلك اللّحظة أخذت رائحة القهوة تأسرُني وتجذبني إليها كأنّها حسناء مرّت فتركت عطرها السّاحر ليتبعه العاشق الولهان إلى ما لا نهاية، رائحة ماء الزّهر تملأ المنزل، لا أستطيع المقاومة، فكم من رجال وقعوا في أسرها؟ أذهب حينا إلى المطبخ لأرتشف فنجان قهوتي وأعود حينا لجمع أمنياتي.

تجذبني الأفكار المتناثرة هنا وهناك كتناثر أثاث المنزل، فأعود لأتذكّر ما يلزمني، محفظتي، مفاتيحي أين هي؟

-آه، تذكّرت فوق المكتب.

حملت محفظتي وتوجّهت لأرتشف قهوتي، نظرت إلى يدي، فأدركت أنَّ ساعتي هربت منّي، فأخذت أمسك ببقايا الوقت... معطفي وساعتي، هرولت مسرعة إلى عملي. رائحة القهوة تجذبني إلى الوراء وساعتي تجذبني إلى الأمام، مرضاي ينتظرونني، وقعت أسيرة حائرة بين مُلهمتي وبين أمنيتي، الأولى تجذبني وتدعوني إليها لأرْتَشِفها وأستنشق نكهتها السِّحريّة فأطلق العنان لأفكاري لتبحر في بحر الأماني، وأرسم الابتسامة على محيّاي، والثّانيّة تأخذ من مُستقبلي قطعة زجاجيّة ماثلة أمامي، أرى فيها أملي وعملي وأنا أنتقل هنا وهناك، أسابق الزّمن حتّى لا يمضي وأمضي أنا دون تحقيق أمنيتي.

وضعتُ فنجان القهوة في مكانه داخل السيّارة وأطلقت العنان لها، الطّريق مزدحم، سيارات بمختلف الألوان، لم تستهوِني حتّى السّيارة ذات اللّون الأسود، بقدر ما تستهويني قهوتي، الكلّ يخرج في وقت واحد، كأنّهم اتّفقوا.

-لماذا يا ترى؟

الكلّ قلق يريد المرور، ألم يمنعوا التجوال في زمن كوفيد-19؟

حينها تذكّرت وصحت: "آه قهوتي!"

- كيف لك أن تأسريني وأنت حبيسة فنجان؟

رأيت صُورتي في الفنجان فابتسمت خوفًا من أن تضحك عليّ.

سألتها: سوداء وتأسرين القلوب، كيف أمكنك ذلك؟

فقالت: لو كنت قهوة بيضاء لما كنت بنكهة التّفاؤل، ليس كلّ سوادٍ مظلم.

فأدركت لون اللّيل وسكونه، فكم من سواد أخفى داخله بياضا للقلوب؟

فقلتُ: "هكذا هو وباء كوفيد-19 سيختفي ويمضي لنعود إلى حياتنا اليومية العادية". حملت الفنجان لأرتشف للمرّة الثّانيّة، اشتعل الضّوء الأحمر، أخذت السّيارات ورائي تنذرني بالانطلاق، فاشتعلت شوقا لقهوتي كما لم يحدث من قبل، انطلقت على أمل أن أصل إلى مكان عملي وأرتشف قهوتي.

وصلتُ إلى مكتبي، والكأس لا يزال في يدي، آهٍ، أين أضعهُ أخاف العدوى، سبقتني نظرات عيناي، وإذا بالمكتب مليء بالسّندات والأوراق، الأوراق تنتظر توقيعها، والملفّات تنتظر قراءتها والمرضى ينتظرونني لأكشف عليهم...

ماذا أفعل؟ غرقتُ وأنا أحاول أن أتخلّص من تلك الكائنات الولودة، تدخل الورقة وتخرج ورقة، تبًّا لهذه الأوراق البيضاء، يرن الهاتف برقم زوجي مرَّة أخرى...

فتحت شاشة الهاتف وقلت: "اصبر..."

قال: عن ماذا تبحثين يا **ماريا**؟

- أبحث عن البرقع...

- قهقهتُ، أنت تبحثين عن البرقع وأنا أبحث عن سرِّ الوباء...

- العالم كلُّه يعيش سكونًا وركودًا وأنت تبحث، هل العالم عاجز عن البحث حتّى تبحث أنت؟

- أتمنّى أن أكشف سرّ هذا الوباء الذي حلَّ بنا فجأةً...

- يا باحث الكلّ يبحث عن السرِّ الأعظم وراء هذا الوباء، كأنّكم تبحثون عن العلبة السّوداء للطائرة التي اختفت أو السّفينة التي غرقت في بحرٍ لجيٍّ، لا زلتم تتساءلون:

- هل اختفت في مثلث الموت "Dangerous area of the face"؟ المنطقة المثلثّيّة الشّكل بالوجه، حدودها ركني الفم وجسر الأنف، سياجهُ حدود الأنف وقاعدته الشفاه العليا، إنّها منطقة مرور الوباء...

- أنا أحدّثك عن الوباء وأنت تتحدَّثين عن مثلث الوجه، أظنّك تضعين المساحيق... أقول لك مثلث الموت...

- آه، عرفتهُ أظنّكَ تتحدّث عن مثلث برمودا الذي يعرف بمثلث الشَّيطان، هل خنقهم كلُّهم غاز الميثان الآتي من مثلث برمودا؟ أصبح الوباء ومثلث برمودا أسطورتين، لكن الحقيقة الوحيدة هي حقيقة وباء كوفيد-19...

- دعنا من هذا وحدّثني عن يومياتك مع أصدقائك المغتربين.

****

يوميَّاتُ مغتربين

شاء القدر أن أجتمع مع رجلين في سكنٍ واحدٍ، فظروف العيش هنا قاسيّة جدا، خاصّة بالنسبة لنا نحن المغتربون، كنَّا نظنُّ أنّ الجنّة وراء البحار. الأوّل صديقي السّوداني محمّد عثمان يعمل هنا بمدينة ميورقة جزّارا، والثّاني شاب يدرس الطبّ في مقتبلِ العمر يدعى ماميدو Mamido التحق بنا مؤخّرا قبل حلول الوباء، يعملُ ليلاً. عشنا ثلاثتنا رعب الوباء لحظة بلحظة، فالبشر نسيج واحد يلتقون مع بعضهم البعض فتنتقل العدوى دون سابق إنذار. كانت الأيّام الأولى عادية مثل باقي الأيّام، أذهبُ للعمل في شركة تصنيع الهواتف ابتداءً من السّاعة السّادسة؛ لأنّ المكان الذي أعمل به بعيد، يستغرقُ ساعة ونصف في حافلة العمل التي تنقلني من مكانٍ معيّن إلى الشَّركة التي تبعد عن المنزل. وماميدو يعمل في بعض الأحيان ليلا من أجل التدريب، يقضي نصف يومه نائما والنّصفُ الآخر يلتهم الكتب التهاما. أمّا السّوداني محمّد عثمان فيذهب السّاعة السابعة إلى قصّابته فهو الوحيد القريب من المنزل. كانت

يومياتنا عادية إلى أن حلَّ الوباء بعاصمة إسبانيا مدريد Madrid، لم نكترث لذلك، فالأمر بدأ عاديا...

نتابعُ الأخبار من حين لآخر إلى أن ارتفع عدد انتقال العدوى بالوباء إلى المئات والآلاف، انتقل الوباء إلى الجزيرة الجميلة التي تقع وسط البحر التي نسكن فيها، ظنّنا لبرهة أنّ هذه الجزيرة التي تقع وسط البحر لن يصلها الوباء، فقبل أن يصل يغسله ماء البحر، لكنَّ ماء البحر هذه المرّة كان في صفِّ الوباء، انتقلت العدوى إلى الجزيرة ميورقة Mallorcaعبر السُّياح، فالبشر يبحثون عن الجمال أينما كان.

دقّ ناقوس الخطر في الشّركات الإسبانيّة، أُغلقت الشّركات وتمّ تسريحُ كلّ عُمّالها، توقّفت عن العمل، لا أقتات إلاّ من تلك المنحة التي تسمّى منحة كورونا. اشتدَّ الوباء في أوربا بأكملها، واشتدّ الخوف معه في قلب صديقيّ، لم نجد ما نفعله غير تسليم أمرنا لله وانتظار الفرج...

اغتنمت فرصة مكوثي في المنزل لأروي **لماريا** يومياتنا ومعاناتنا حتَّى أكسر ذلك الرّوتين اليومي، فقد أغلقت الشَّركة التي أعملُ بها، فما وجدت غير المكوث في المنزل إجبارا، مع أنّي لا أحبُّ

ذلك... لقد كثَّفت **ماريا** من اتِّصالاتها في زمن الوباء لأنّ الخوف تمكّن منها، خافت أن تنتقل إليَّ العدوى...

ها هي ترن، عمرها طويل، كما تقول جدَّتي: "هاها ذكَرْنا القِط جَا ينُطْ".

كلَّما أجبتها تقول لي: "تنبعثُ رائحة الموت من أوروبا"، فأقول لها: "الموت قادم من الشَّرق..." ثمَّ نقول مع بعضنا: "الموت في العالم كلِّهِ". صحيح أنَّنا كبار لكن الطّفل الصّغير داخلنا لا يكبر أبدا، فنحن لا نحرم نفسيْنا من الضَّحك كالصّغار والمرح كالصّغار، فبين الزوج وزجته أيضا توجد ألعاب لا يدركَانِها إلاَّ حين يسمحان لذلك الطّفل الصّغير بإسعادهما، فيشعران بالرّاحة... إنَّها ترن، ترنُّ وترنّ، تن، تن، تن...

- ألو، سلام.

-سلام علينا وعليكم.

-هل من جديد عندكم؟

-أخبَرُوني أنَّ فيروس كورونا وصل حتَّى جزيرة «بالما دي مايوركا palma de mallorca»

-قهقهت، هل نحنُ في كوكبِ المريخِ حتَّى لا يصلنا الوباء؟ مثلنا مثل كلِّ دول العالم.

-آه، كارثة!

-إذن أسرع واحجز أوَّل تذكرة سفرٍ من هناك إلى الجزائر، فهناك طائرات تجوبُ العالمَ لتحضر من المغتربين من يريد العودة لبلده، والجزائر من بين الدُّول التي تجلي رعاياها...

-لا أستطيع الرّجُوع الآن، فات الأوان، لقد انتشر الوباء في إسبانيا بكاملها، أصبحت بؤرة وباء.

-هيَّا ألحقْ نفسك وانفذ بجلدك.

-مستحيل... لا يمكنني ذلك...

-ماذا لو نقلتُ العدوى؟ هل أنت مصابُ؟

-لا... الحمد لله، أنا بخير...

-إذن! ما الذي يمنعكَ من المجيء؟

-ما أدراني بعدم إصابتي بالوباء؟ لا أريدُ أذيَّتكم ولا أذيَّة أشخاصٍ آخرين، تعرفين أنَّ المُصاب لا يؤذي نفسه فقط، بل ينقل

العدوى ابتداءً من سائق الأجرة الذي يركبُ معه، وقد يكون سائق الأجرة له عائلة فينقل هو الآخر العدوى لزوجته وأولاده، وإذا دخلت محلاً واشتريت شيئا، فتُنقل العدوى إلى البائع كذلك، وهذا ما حدث في أغلب الدُّول التي استهزأت بالوباء في بدايته.

إيه يا إلياس، كلامك صواب. لقد ذكَّرتني بعودة ذلك الشّيخ الطَّاعنِ في السنّ المُغترب العائد من فرنسا يوم 25-03-2020، عاد وليتهُ لم يعد، هرب من الوباءِ لكنَّهُ لم يكن على علمٍ أنّه حامل للوباء. جاء والفرح يملأ وجهه، فرحت العائلة بقدومه وقالوا: "حمدا لله لقد نجوت بنفسك من الوباء". جاء حاملاً الكثير من الهدايا وعلب الشكولاتة كعادتهِ، لكنَّ المفاجأة كانت فاجعة كبرى للعائلة بكاملها.

- ماذا حدث يا **ماريا**؟

للأسف لم يكن هناك حجر صحي للذين يعودون من خارج البلد بعد، لم تظهر أيُّ أعراض عليه.

-نعم، هناك معلومات طبيَّة تقول إنَّ حامل الوباء لا تظهر عليه الأعراضُ حتّى يصل إلى اليوم الرَّابع عشر.

أعلم ذلك، دعني أخبرك بما حدث للشَّيخ الكبير عمّي رضوان الذي أقبل على أهلهِ بالعناق والتّقبيل، وإحضار الهدايا ككلِّ المغتربين الذين يجلبون الهدايا لأحبابهم. وبعد يومين شعر بتعبٍ وإرهاقٍ شديدين، ظنَّت عائلته أنَّهُ تعب السَّفر، فتركوه يرتاح بعدما أكل وشرب وتحدّث معهم عن الهلع الذي أصابهم بعد انتشار الوباء في العاصمة باريس. جاء اليوم الموالي اشتدَّ سُعالهُ وارتفعت حرارته وشعر بضيقٍ في التنفّس، يصعد قفصهُ الصّدري وينزلُ وبصعوبة يتنفّس. أُخِذ على جناح السُّرعة للمستشفى، أدخل قاعة الاستعجالات ووُضع لهُ الجهاز التّنفُّسي على أنفهِ. انتظر الجميع أمام غرفة مكتوب عليها عاليا باللَّون الأحمر "قاعة الفحوصات". الجميع يترقَّبُ، بعضهم يقضم أظافره والآخر يروح ويجيء والآخر يرفع رجلهُ ويخفضها كأنّه يراقصها من شدَّة القلق، كلّهم ينتظرون عودته ليأخذوه معهم للمنزل. خرج الطّبيب الذي أجرى الفحوصات لا تظهر ملامحه مثلما كنَّا نرى الأطباء، يرتدي لباسًا واقيًا من أعلاه إلى أسفله

حتّى وجهه مغطًّى، يا الله كيف يستحمل هذا اللِّباس الواقي؟ ترى العرق يتصبّبُ من جبينه...كانت المفاجأة.

-ماذا حدث؟ لا تقولي أنّه مصاب بالوباء، تكلّمي يا **ماريا** أربكتني.

-هذا ما أخبرهم به الطّبيب...

-وبقية العائلة كيف هي؟

طلب الطَّبيب استدعاء العائلة بكاملها لإجراء الفحوصات والتّأكد من حالتهم الصّحيّة، وكان أوّل ضحيَّة ذلك الطّفل الصَّغير الذي أجلسهُ جدّه في حجره وهو يُريه ما أحضر له من ألعاب وطائرات صغيرة، فكان يصدر صوتا كأنّه يقول لجدّه: "شكرا"، فكان الجدُّ سعيدا بفرح حفيده فتارة يلعبُ معه وتارة يضمّه ليطفأ جذوة الشّوق، ولم يكن يدري أنّه سيطفئ قنديل البيت.

نعم، إنَّهُ حبيبُ أمّهِ **سارة،** قرَّة عينها الذي أنجبته بعد سبع سنين عجاف. كان يملأ أرجاء البيت فرحةً، إنّهُ "عبد الرزاق" الذي سمَت روحه إلى عليائه بعد إصابته بوباء كوفيد-19، انتقلت العدوى سريعًا عبر أنفاس جدّهِ، أصبح البيت موحشًا

دون صوتهِ، دون ضحكاته، عمَّت الكآبة أرجاء ذلك المنزل، بقيت ألعابه تنتظر عودتهُ...

تتنهدَّ أمِّ **عبد الرزاق** تنهيدة تقتلع جذُور صبرها من صدرِها، إنّها الأمُّ لا يزال الحبل السّري الذي يجمعها بعبد الرزاق موصولاً لا ينقطعُ أبدا، مهما ذهبت السّنين ومضت الأعوام لن تنسى الأمّ قطعة منها، إنّه يشبه قطعة الجبن في ليونتها وبياضها...

أخبروني أنَّها من شدّة حزنها تعاتب صورة شيخ هرمٍ يصارعُ الموت في المستشفى:

-ماذا حملتَ لنا هذه السَّنة 2020؟ تعوّدنا هداياك الكثيرة، تعوّدنا عطاءك، لكنَّك هذه المرّة يا أبي أخذت منَّا أعزّ ما نملك، يحضنها زوجها "إلياس" ويهدئ من روعها...

يا حبيبتي! الموت واحد والأسباب متعدِّدة، هوّني عليكِ فأبي عاش غربةً طويلة خارج بلاده، يشتاق تربتها، يشتاق عناقها، فأنا أفهمهُ، أراد أن يكون في تربة بلاده في أيّامهِ الأخيرة، فمهما طالت غربة الإنسان خارج بلده إلاَّ أنّهُ يعود إلينا حين يشعر بالضّعف فهي القوَّة، ألا تعلمين أنّ «الأرض هي الحُضنُ الأوّل والأخير

لنَا؟»، لقد أخبرني أنّهُ كان يعيش هاجس الموت هناك، ما كان يهابُ الموت لكنّه اشمأزَّ من حرقِ بعض الجثث هناك لبعض الدّيانات، ونحن ديننا يأمرنا بالدّفن.

-يا حبيبتي، لا تلومي أبي، فهذا قضاء الله وقدره، فما أعزُّ من الابن إلاَّ ابن الابن.

حضنت **سارة** زوجها خوفًا من فقدها له هو الآخر وأخذت تبكي بحرقة ابنها الصغير **عبد الرزاق**...

سمع الجدُّ بما حدث لحفيده، فأخذت أنفاسه تشتدُّ وتشتدُّ، خنقته العبَرات حتّى لحق بحفيده الصّغير.

أنا لم أكن أظنّ أنّ الوباء سيصيب الأطفال الرُّضع والشُّيوخ الركَّع! لكنِّي لا زلت أبحث عن السرِّ وراء هذا الوباء!

-أرأيت ما حدث؟ هذا الذي خشيتهُ يا **ماريا**، كيف أعود وأنا على علمٍ بحديث الرّسول صلى الله عليه وسلم عن الطَّاعون: «إذا سَمِعْتُم بِهِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَدْخُلُوا عَلَيْهِ وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا مِنْهَا فِرَارًا»...

لمَّا سمعت كلام زوجي توقّفت عن الكلام، وأخذت أسأله عن حالهم وأحوالهم في تلك الجزيرة، ثمَّ أخذت أتذمّر من سفره وغربته بذلك المكان وألوك الكلام دون وعي منِّي، فحاول بنباهةٍ أن يصرفَ تفكيري فيه وقلقي عليهِ وأخذ يصف لي جزيرة بالما دي ميورقة "palma de Mallorca"هل تعلمين يا **ماريا** أنَّ هذه الجزيرة هي من أجمل مدن إسبانيا؟ تقعُ وسط البحر كأنَّها لؤلؤة توسَّطت العقد لتنال شرف الوجاهة. كانت تسمَّى قديمًا بمدينة ميورقة، وهي عاصمة منطقة جزر البليار، يأتيها ما يقارب عشرين مليون سائح من كلِّ العالم. حين أجوب يا **ماريا** شوارع هذه المدينة السَّاحرة أشعر بحنين الماضي، بقيثارة تعزفُ على أشعار ابن زيدون وعشقه لولادة بنتُ المستكفي، أشعر بحبٍّ داخلي يختلجُ أنفاسي، يشدُّني إليها كأنّها امرأة حسناء تمرُّ أمامك تبصرها كطيفٍ يمضي، لكن يترك شذى عطره في المكان، فلا الزّمان يمحو تلك الذّكرى ولا الهواء يغيّر ذلك العطر الزّكيّ، لا تشعر أبدا أنّك خارج بلدك العربي، وهذا لأنّ أجدادنا عمّروا فيها أكثر من ثماني قرون.

-أعرفُ ذلك، لقد نسيت أمرا مهمّا فيها، حسناواتها، فما أخرجنا من أرض الأندلس غير فتنة حسناواتها؟

-هيه، لا أكترث لذلك الأمر، فالجمال موجود في كلّ بقاع الأرضِ، ولا يوجد أجمل من المرأة العربيَّة، تأكّدي من هذا...

- كيف أتأكّد؟ لست رجلاً...

-لا تنظري إلى سفاسف الأمور، أنت لا تعرفين كيف يعيشون هنا، نحن من يدرك الفرق.

-أيُّ فرق؟

-هناك أمور موجودة في المرأة العربيّة غير موجودة في المرأة الغربيَّة! لا يدركها إلاَّ من كان مغتربًا...

-المرأةُ العربيَّةُ تُشبهُ تلكَ الجوهرَة الثَّمينة التي تُخبَّأ في مكانٍ ما، تُخفَى عن الأعين حتّى لا تُصِيبها تلكَ الشَّرارة الكهربائيّة التي تخرج من حدقة عين كلِّ رجل. فجسدُ المرأة العربيَّة يُشبهُ الرّوح في نقائها وصفائها، لا يجب أن تدركهُ أبصار كلِّ الرّجال حتّى لا يتّسخ باستمناء العقول الخبيثة، فكلَّما نظر رجلٌ إلى مفاتن المرأة

إلاّ وأخذ الشَّيطانُ منها ربع ماءِ جمالها، قد لا تدركه في سنِّ الزُّهور، لكنّها بتقدّم عمرها سوف تبصره حين تخلو بذكرياتها...

-لقد أصبحت فيلسوفا يا إلياس، ما هذا التّحليل؟ أصبحت خبيرا بالنّساء...

-أين تعلّمت هذا؟ هل عندكم مدرسة النّساء وأنا لا أعلم؟

-أصبح لسانك سليطا يا ماريا، هكذا أنتنَّ تبحثن عن المواجع ثمّ تقلنَ لنا نحنُ الرّجال:

"أوجعتمُونَا..."

-لا تؤاخذني، فقد انقلبت عليَّ الموازين، لا عمل، لا دخول، لا خروج، والله اشتقت لجملة الممثّل المصري الشَّهير "**عادل إمام**" في مسرحيَّته شاهد مشفش حاجة: "داخلا خارجا، خارجا دخلا، صبح وليل، ليل وصبح..."

-أصبتني برصاصة الحبِّ!

-الحبُّ!

قهقه، ما قصدت حبَّك لا تنجرفي وراء عواطفك، قصدت أنّك تعرفين أنَّني أحبُّ هذا الممثل الذي أمتعنا في زمنهِ، الزمن الذي كانت تلتفُّ فيه كلُّ العائلة لمشاهدة التِّلفاز وتستمتع بما تشاهد، تنتظر بشغف موعد مشاهدة المسرحية التي تحبُّها أو المسلسل الذي تتابعهُ أو الرّسوم المتحركة التي تعشقها. حقًّا، زمن جميل ذهب معهُ كلّ شيء جميل، الآن أصبح كلّ شيء متاح وكلّ أمر مباح...

-تغيَّر كلّ شيء يا إلياس، الجلوس في المنزل طوال الوقت يتعبني، الخوف عليكَ يكادُ يقتلني...

-أنتِ أفضل حالاً مِنّي، أنت بين أبواب الجنَّة تتمتّعين، أمّا نحن فغربتنا غربتان، نعيش بعيدا عن الأهل، ونعيش بين جدران غرف صغيرة.

-هل أنت لوحدك في المنزل؟

- لا، ماميدو نائم ومحمّد عثمان بالدّكان؟

-ألا تخاف أن ينقلا إليك العدوى، كارثة واحد يعمل جزّارا يلتقي بالنّاسِ نهارا والآخر يلتقي بوباء كرونا ليلا...

-وماذا عنك أنت؟ ألست طبيبة ومعرّضة للعدوى أكثر منّي، لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا...

-أنت تشبه البركان الصّامت، هادئ الأعصاب، لا يقلقك لا مرض ولا جلوس في المنزل ولا شيء. ماذا تفعل يوميا حتّى صرت تملك كلّ هذه الطّاقة من الهدوء؟

-لماذا؟ هل ستكتشفين سرّ الوباء عبر أسئلتك لي؟

-كلاَّ، عندما أكتشف السرّ وراء الوباء سأخبرك، ألن تكون معنا في المحكمة حتَّى تعرف؟

-أيُّ محكمة؟ أنت تهذين أو أصابك الجنون يا **ماريا**؟ منذ أن حلّ الوباء وأنت تقولين محاكمة الوباء لأنّ الكلّ أكل من تفاحة آدم-19، أنا وراء البحر عالق لا طائرة ولا سفينة وتقولين تحضر!

-أنا متأكّدة أنّك ستحضر محاكمة الوباء.

-أنا لا أفهمك يا **ماريا** وأحيانًا أخاف من تفكيرك المخالف لكلّ أقرانك، الآن انسي هذا الموضوع ودعيني أجيبك عن سؤالك:

أنهضُ صباحا، أقوم ببعض التمارين الرياضيّة، فقد ازداد وزني كثيرا من كثرة الأكل والجلوس أمام الأخبار، مع أنّ حجم الغرفة

لا يتجاوز طوله ثلاثة أمتار، ثمّ أعود للمصحف وأقرأ القرآن حتّى إنّي وجدت راحتي في ذلك.

-آه، خطرت ببالي فكرة رائعة!

-ما هي؟

منذ مدَّة وأنا أريدُ حفظ القرآن، ما رأيك أن أحفظ كلّ ثمن وأتّصل بك مساءً لأكرّره على مسمعك وأنت تصحّح لي، إذا أخطأت ثلاث مرّات أعيد حفظ الثُّمن مرّة ثانيّة.

- اتّفقنا، على بركة الله.

بدأت **ماريا** تحفظ كلَّ يومٍ ثمنا على مسمع زوجها، والأمر الذي كان يزعجها كثيرا عندما تتّصل بهِ مساءً وهي متحمّسة للحفظ ولا يردُّ، ويزيد من ثوران غضبها كلّما أخطأت يقول لها: "لالالا".

فيُثير غضبها بهذا الردّ، فكانت تقول له:

-قلها مرّة واحدة على الأقل، فكلَّما قُلتها قتَلتَ خليّةً عصبيّةً من خلايا التّفاؤل عندي، وتذكّرت في تلك اللّحظة البيت الشّعري للفرزدق في مدح زين العابدين:

ما قال لا قطُّ إلاَّ في تشهدهِ لولا التّشهدُ كانت لاؤه نعم

-لا عليك سأغيّرُها بكلمةٍ أخرى، كلَّما أخطأت أقول لك: "توقّفِي...."

-هل تظنُّني قطارا حتَّى تقول لي توقَّفي.

-أتعبتني لم أفهمك ماذا تريدين؟ ماذا أقول لك إذن؟ أعرفك لا تريدين أن أوقفك حتّى تحفظي أكبر قدرٍ ممكن، بهذه الطريقة ستنسين ما حفظته بسرعة، أؤكدُ لك هذا، إذا أردت تثبيت الحفظ، لا تستعجلي في المرور من سورة إلى سورة.

-توقَّف، لقد فهمت.

-أنا لم يفهم شيئا، من يقول توقّف أنا أم أنت؟

قالت: قل لي أعيدي بلطفٍ واصبر عليّ حتَّى أتذكّر لوحدي....

-اتفقنا على هذه الطريقة، أتركك الآن لأنَّ صديقيّ ماميدو ومحمّد عثمان عادا من العمل...

****

وجدنا أنفسنا مغتربين عن أوطاننا من أجل لقمة العيش ولا مفرّ من الوباء، لا نفعل شيئا سوى المكوث في المنزل بعد تحديد ساعات العمل من قبل السلطات الإسبانية. لم نجد ما نفعلهُ سوى استرجاع ذكريات مجيئنا لإسبانيا أوّل مرّة، انطلق في الحديث أوَّلنا وأكثرنا عشقا لها، إنّه إلياس:

منذ علمت أنّ إسبانيا كانت بلاد أجدادنا وأنَّهم عمّروها لمدّة ثمانية قرون قرَّرت أن آتي للعمل فيها واكتشاف الجوهرة التي ضيّعها أجدادنا بعدما فتحوها، وأوّل مكانٍ زرته هو قصر الحمراء...

ماميدو:

-لم أرهُ لحد الآن، وهل كان يشتعل حبًّا حتّى وسمتموه بالحمراء؟ هل شيَّده أجدادكم؟

آه، يا تراث أجدادي، يا حضارة ضيّعناها بلهونا، مذ قال امرؤ القيس: قفَا نبكِ ونحن نبكي إرثنا الضَّائع... حسب التأريخ لهذا الصّرح فقد وُسم بالحمراء على ضوء المشاعل التي كانت تعكس لونا أحمرَ في اللَّيل، كان لون مادة بناء الآجور الأحمر كأنّها الشّفق

في وقت المغيب. لقد شيَّده الملك المسلم أبو عبد الله محمّد الأول بن يوسف بن محمد أحمد بن نصر بن الأحمر بين 1238-1273 في مملكة غرناطة خلال النّصف الثّاني من القرن العاشر ميلادي، يظهر فيه الفن المعماري العربي.

ماميدو: واضح أنّه رائع البناء؟

-لو قلتُ لك قصرا لكان على رأس القصور، فالمكان بهدوئه يملك هيبة وسحرا ينفذُ إلى أعماقك فتتمنّى لو تستحضر شخصيّة من شخصياته التي بنت وشيّدت وتجلس معها لفترة منها وتترك عبق التاريخ يتحدَّث...

ماميدو: أشعر بحسرتك وأنت ترى تراثا مثل قصر الحمراء لم يشيّد مثله حتى في دولة مسلمة أصبح لغيركم وجهة سياحية.

-كلّما نظرت إلى نمطهِ المعماري ذرفت عيناي دموعا حارّة... ما أخرجنا منه غير القواني و...

فلنحذر فتنة الحسناوات الإسبانيّات حتى لا يفعلن بنا مثلما فعلن بغيرنا...

محمّد عثمان: لن أتزوّج إلاّ كنداكة من كنداكات السّودان.

-لا تنسَ أن تدعوني لزفافك، لقد اشتقت للسّودان ولرائحة السّودان وعبق السّودان!

-أكلُّ هذا للسُّودان؟ هل زرتها قبلاً يا إلياس؟

-تجمعني بها ذكرى من أجمل الذّكريات!

-أذكر هذه الذّكرى لأنّي كنت بالسّودان في ذلك الوقت والتقيت بالكثير من الجزائريين، ولكنّي لم ألتقِ بك!

-يكفيني أنّني التقيت بأهرامات السّودان التي أسرتني بتاريخها العريق، وتسلّقت جبل مرّة بدارفور، وألقيت بدهشتي المثقلة في شلاّل قلول حتّى شعرت بخفّتي، ودخلت بوابة كتشنر في سواكن وانعكست زخارفها ونقوشها في ضوء الشّمس. وإذا لم تصدّقني أنّ كنت بالأهرامات يكفي أن ترى مثلّثاتها على كفّ يدي حين صافحتها، وتنظُر بعيني، فأكثر ما فاجأني أثناء زيارتي لبلدك أهراماتها! صدِّقني لم أكن أعلم أنّ السّودان بها أهرامات كثيرة منتشرة هنا وهناك بمنطقة البجراويّة الأثريّة شمال البلاد، إنّها مدينة الأهرامات حقّ لها أن تكون ضمن العجائب السَّبع، آهٍ يا صديقي محمّد عثمان كم نحن مجحفون في حقِّ تراثكم الأثري؟

-لم ترَ إلاّ القليل في السّودان، فالسّودان قارّة في بلد !السّودان جنّة فوق الأرض!

-يكفيني طيبة شعبها التي لو وزِّعت على الأرضِ لأنبتت ياسمينا في كفِّ زائرها، الكثير منكم استدعانا في منزلهِ لمّا حضرنا مباراة كرة القدم.

-آه؛ لذلك تطبخ وتترك لي دائما من طعامك! كنت دائما أسأل نفسي عن هذا الكرم الزائد معي!

-إنّهُ الوفاء يا صديقي محمّد عثمان، لقد شاءت الأقدار أن أجتمع بك مصادفة في بلاد الغربة، فكما تقاسمتم معنا الفرحة ذات يوم أتقاسم معك ألم الغربة ومرارتها.

لمّا كنت بالسّودان تعرفت على شابٍ في مثل سنّي وهو من أخذني لزيارة الأهرامات لكنّي لم أستطع رؤيتها كلّها فعددها حوالي 225 هرما. وبعدما استأجرته لزيارة منطقة البجراوية استدعاني لمنزله، وعنده تذوّقت الطعام السُّوداني، أكلت العيش البلدي وتذوّقت المرارة النيّئة التي طلبت من ذلك الشّاب أن

يقوم بطهيها فقال لي: تُؤكل هكذا بهاراتها، والكمونية الشّهيّة التي نسمِيها نحن في الجزائر بالدُّوارة.

حقًّا كانت أيَّامًا جميلة!

(أخذ ماميدو يصفِّق وهو متذمّر من الاثنين)

هل أنا خارج الإطار؟ تتبادلان الحديث مع بعضكما، ماذا عنِّي؟

انزعج ماميدو منهما وانعزل عنهما قليلاً، كان أكثرهم هوسًا بمشاهدة الأخبار. كان الصّديقان يأكلان في المطبخ إلاّ ماميدو تغيَّرت عاداته كثيرا، فقد أصبح يُحضر مائدته الصّغيرة الدائريّة الشّكل ويضعها فوق فخذيه وهو ينظر للتلفاز، يضع اللّقمة في فمه وعيناه على التلفاز وأذنه تسمع الأخبار، يقلّبُ القنوات من إسبانية إلى فرنسية إلى قنوات أمريكية، وما إن يُبصر الجثث والموتى المترامية هنا وهناك في إيطاليا حتّى يصرخ من أعماق جوفه، وتجحظ عيناه. وذات مرّة وقف من فرط دهشته فوقعت المائدة بما فيها من ملذات الأكل ولم يشعر بذلك وأخذ يقول: "كارثة، كارثة، كارثة..."

وما إن استرجع عقله وجمع أعضاء جسده التي جعلها تذهب يمينا وشمالا حتّى سمع إلياس يقول له: "المائدة الكورونيَّة" وهو يضحك عليهِ، ولمّا أبصر ماميدو فعله ترك المائدة ملقاة على الأرض وأخذ يتابع بعينهِ الصّور وبسمعه الخبرَ، وبقلبه النّابض وبعقله الذي أخذ يسجّل في منطقة اللاشعور كلّ ردّة فعله.

ساءت حال ماميدو أصبح لا يتكلّم إلاّ عن الوباء كورونا، كلَّ منه الصديقان وحاولا تغيير الرّوتين الموجود في المنزل، فاتّفقا على جدول ينظّمون فيه أنفسهم، فنصحهما إلياس أن يجعلا مكانا فارغا في الغرفة ليقوما بحركات رياضية كلّ يوم كما يفعل هو يوميًا، فقال له ماميدو:

-ومتّى نشاهد التلفاز؟

-آه منك يا ماميدو ستقتلنا معك خوفا.

قمنا صباحا على السّاعة السَّابعة لنقوم بالحركات الرياضيّة إلاّ ماميدو كان ينهض بشقّ الأنفس حتّى يأخذ محمّد عثمان الماء ويرشّه على وجهه...

بدأنا الحركات الرّياضيّة وماميدو يتكلّم عن الوباء، ومرّة على مرّة ينسحب ليضاعف صوت التِّلفاز ليسمع الأخبار، تركناهُ على ذلك الحال، وفكّرنا في إخفاءِ جهاز التّحكم لمَّا نبدأ التمارين الرياضيّة، إلاّ أنّ ماميدو تفطّن لذلك الأمر، فانزعج منَّا وتوقَّف عن التَّمارين الرياضيّة وانعزل لوحده، يأكل لوحده ويسهر لوحده.

تمكّن الخوفُ من ماميدو حتّى إنّه أصبح يهذي بالمرض وهو نائم... وحدث ما لم نتوقّعهُ!

كُنَّا نسمعهُ ليلاً يستيقظ وهو يتكلّم، فظننَّا أنّه يتكلّم مع أحد في الهاتف، وأكثر كلامه كان عن الوباء، وذات ليلة أخذ يكرّر الكلمة لعشرات المرّات: كورونا، كورونا، كورونا، كورونا، كورونا، كورونا، كورونا...

أصابنا الشكّ من حالة صديقنا الذي انعزل عنَّا في البيت الواحد فقرّرنا مراقبة ماميدو ليلاً، فرأينا ما لم نتوقّعهُ أبدا...

ينهضُ ماميدو ما بعد السّاعة الصّفر ويأتي إلى غرفة التّلفاز وهو يردّد: "كورونا كورونا كورونا" ثمّ يعود لغرفته. في اللّيلة الأولى

لم نتكلّم معه، وفي اللّيلة الثانيّة أخذ يكرّر كلمته المعروفة نادى عليه محمّد عثمان: "ما بك يا ماميدو؟" فنظر إليه وهو واقف لا يتحرّك كأنّه جانٌّ ويعيد كلامه: "كورونا كورونا كورونا" ويمضي كالروبوت لغرفته ويغلق الباب.

هربنا إلى غرفتينا دون حديث في الموضوع. استيقظنا صباحًا وظنّ كلّ واحد منَّا أنّه رأى كابوسا فقط، ارتشفنا فنجان القهوة مع حبَّات الكرواسون مع بعضنا البعض، والكلّ ينظر إلى فنجانه ويكلّم ذاته خلسة، نطقت أوّلهما:

أصبحت متعبًا جدا، رأيت البارحة كابوسا!

فسقط الفنجان من يد محمّد عثمان: "كابوس! حتّى أنا رأيت كابوسا".

نطق ماميدو: "حتّى أنا رأيت كابوسا".

تجمّد ثلاثتنا في أماكننا وأخذنا ننظر إلى بعضنا البعض، سألتهما: "ماذا رأيتما؟"

فقال محمّد عثمان: "كأنّي رأيتُ ماميدو مستيقظا البارحة في حدود السّاعة الصِّفر"، فقلتُ: "الحُلمِ نفسه الذي رأيته"، فقال ماميدو: "كأنّي رأيتُ نفسي كهذا الحلم الذي ذكرتموه!"

فتساءلنا: هل يمكن أن يرى الأصدقاء في المنزل نفسه الحلم نفسه؟

نطق ماميدو: ممكن أن يكون بيننا روحانيٌّ، فيجعلنا نفكّر التّفكير نفسه، ترى من هو؟

فقلتُ: ما هذا الهراء؟ روحاني! أظنُّ أنّها أرواح الجثث جاءتك يا ماميدو، ليس كابوسا بل هو حقيقة، تذكّرت الآن، لقد رأيتك أنا ومحمّد عثمان البارحة استيقظت ليلاً وأنت تهذي من كثرة مشاهدتك للتّلفاز وتحدّثك عن الوباء...

محمّد عثمان: لقد خلَّصتني من وهم كاد يقتلني، ظننت نفسي جُننت...

ماميدو: أنا لا أسيقظ ليلًا، أظنّكما تريدان التّخلُّص منّي، لن أرحل من هنا، لا أحد سيستقبلني في هذا الظّرف العصيب، تبّا لكما من صديقين، تتّفقان عليَّ لأنّكما عربيين وأنا مسيحي...

لا يا صديقي ماميدو نحن العرب نعامل النّفس البشرية مهما كانت ديانتها بالحسنى وهذا ما يأمرنا بهِ ديننا، سنقف إلى جانبك، لكن خفّف عليك من هذا التوتّر الزائد عن حدِّهِ.

ازدادت عزلة ماميدو وازدادت أخوّتي مع محمّد عثمان لكنَّنا فكّرنا مطوّلا في حالة ماميدو، فقد حدث له أمر مريبٌ لا يحدث إلاّ في السّاعة الصّفر ليلاً...

ماميدو لا يزالُ يستيقظ كالعادة السّاعة الصِّفر وهو يهذي: "كورونا كورونا كورونا"، نوقظه لا يسمعنا، نلمسهُ يتصبَّبُ عرقًا ثمّ يعود كالروبوت لفراشه وينام. بقيَ على حالهِ لأيَّام، رفض الذّهاب للطّبيب النّفسي، قرَّرنا التكلُّم معه وإخبارهُ بما يحدثُ لهُ ليلاً، فازدادت حالته سوءًا.

ماميدو: أتظنّان أنّني مجنون؟ لستُ مجنونًا، بل أنتما المجنونين تودّان التّخلُّص منِّي.

خلا ماميدو بنفسه وتأكَّد أنّه ليس بخير، لكنَّه لم يتشجَّع ويعترف أمامنا.

كان ماميدو متعلقًا بمواقع التّواصل الاجتماعي وخاصَّة بتطبيق الماسنجر، كان يتواصل مع ماسنجر مكتوب عليه: "روحانية كورونا" كانت تنشر أشياء غريبة، تعلِّم ماميدو طقوسًا لم يكن يصدِّقها من قبل، لكن الخوف تمكَّن منه. خوفه من الموت جعله يقوم بما تمليه عليه روحانيَّة كورونا، فقد كان يقوم بطقوس غريبة وقد لاحظ عليه ذلك صديقاه. يحرق أعشابا، يستحم في أوقات غير مناسبة مرّة بالماء البارد جدا ومرّة أخرى بالماء السّاخن، ولمّا تعبت نفسه وضاقت عليهِ الدّنيا بما رحبت عاد لصديقيه وطلب منهما المساعدة، فقد أخذت حالته تسوء يوما بعد يوم..

طلبا منه أن يقلّل من استهلاك الأخبار فليست كلّها حقيقيّة، قد تكون أجزاء منها تشبه البالون منفوخة فقط من أجل أن تشاهدها العامَّة وتراها من بعيد لتدهش الأعين، وما إن تفحصها وتضعها في غربال الحقيقة حتّى تفرقعُ في وجهك، فتصدم صمام أذنك، فهذا الزّخم من الأخبار المتواليّة والمتتالية قد يصيبنا بمرض عقلي، وباكتئابٍ نفسي؛ فالعقل لا يمكنه تحمُّل كلّ ما هبّ ودبّ من أخبار. في زمن وباء كورونا أصبح

الجميع من العامَّة والخاصَّة، الجاهل والمتعلِّم يُعطي لنفسه مقام الطّبيب في الفحص عبر الهواءِ، ويصف الدّواء عبر الهواء، فينزل بنا في الهاوية، وما أدراك ما هي الهاوية؟ صحّة مفقودة من هذه الوصفات الواهيَّة، فالطّبيب لم يدرس سبع سنوات أو أكثر سُدًى من أجل أن يأتي إنسان جاهل عبر الهواء ويعطي وصفات كاذبة، فقط من أجل أن يحصل على درجات الإعجاب التي تليها درجات الخذلان عندنا. فالطبيب يتأمّلُ في عجائب خلقِ الإنسان، وفي عطاءِ الطّبيعة العلاجي، ثمّ يأتي جاهلٌ لم يعرف من الإنسان إلاّ أنّه كثير النِّسيان، لم يبحث في منسأتهِ، ليضع نفسه مقام الطّبيب الحَكِيم، فيشغل العامّة بوصفات لا تصلح، فلم يسمّ الطّبيب حكيمًا إلاّ لأنّه يحتكم لعقله ولمنطق الطّبيعة الإلهيّة التي خُلق عليها البشر وجبلوا عليها، أصبح الجميعُ يُفتِي بالخروج والدّخول، فلا هم دخلوا أسوار العقل فكشفوا معجزته ولا هم تركوا كلّ عامل في معمله، فقد يستجوبون كلّ شيء ويضعون النّقطة في غير محلِّها، يرفعونك متى شاءوا ويخفضونك متى شاءوا.

ماميدو: هل يمكن أن تكون هذه الأخبار غير حقيقيّة يا إلياس؟

ليست كلّ الأنباء حقيقيّة، فقد يستغلُّ أصحاب العقول المريضة هذه الظروف من أجل أن ينشروا الشّائعات، والشّائعات أشبه بعود كبريت إذا رميته في بداية حقل في فصل خريف، أُنظر إلى آخره، فسترى ناره بلغت أقصاه في لمح البصر، هكذا هي الشّائعات اليوم في زمن التكنولوجيا والوباء...

ماميدو: هل يمكن أن يكون هذا الوباء غير موجود؟ وما السرّ وراء ظهوره فجأة؟

هذا السّؤال يقف عند عتبته كلّ الباحثين، لا يمكن أن يأتي الوباء هكذا ويذهب هكذا وإنَّما هناك سرٌّ وراء ظهوره سنعرفهُ في وقتهِ، لا تستعجل حين تحين المحاكمة سيكون جميعنا حاضر؛ لأنّنا من الحضور، ولسنا وحدنا من يحضر هذه المحاكمة، سيحضرها كلُّ موجودٍ على هذه الأرض.

ماميدو: الآن أصبحت أنت المجنون ولست أنا أم أنّك لحقت بي؟

إلياس: ممكن أن أكون كما وصفت لكن سنرى من المجنون الحقيقي أثناء المحاكمة الحقيقيّة.

دعنا الآن من هذا الأمر نتركهُ لميعاده، نحن نفكّر في مساعدتك يا ماميدو حتّى تتخلَّص من هذه الهواجس التي أرّقت نومك، ونقلتك من حالة الوعيِ إلى حالة اللاّوعي.

مرَّت الأيّام ونحن نتألّم لحالة ماميدو وصدفةً دخل ماميدو الحمام، فأخذ هاتفهُ يرنّ ويرنّ فحمله محمّد عثمان فلمح صورة أخ ماميدو تظهر وتختفي، لكنَّهُ لم يردّ، ترك الهاتف حتّى توقَّف الاتِّصال، وقبل أن يضعهُ لمح رسالة عبر الماسنجر طفت فوق سطح الهاتف، عليها صورة حسناء فاتنة بعينين زرقاوين كأنّهما البحر لاتّساع حدقتهما، وظهرت لهُ تسميَّة روحانيّة كورونا، فوسوس إليه الشَّيطان ودخل على الحساب وفتح الرسالة، فوجد أشياء عجيبة غريبة، أدرك أنّها كانت السبب في تغيّر حالةِ ماميدو، فاستدعاني وأعطاني الهاتف وطلب منّي القراءة. تعجَّبت ممّا رأيت، لاحظنا أنَّ توقيت الاتّصال على السَّاعةِ الصِّفر يوميا، ووجود صور للجثث يوميًا وبأعداد هائلة وفيديوهات لكيفية حرق الجثث ووضعها في التُّراب، وطلبات لطقوس غريبة...

أدركنا حينها خطر ما يحدثُ مع صديقنا، إضافة إلى أنّه يخرج كثيرا بحجّة الشّراء، فخفنا عليه وعلى نفسينا من العدوى، وقرّرنا وضع خطَّة استعجاليّة لإنقاذ صديقنا من هذا الأمر. قمنا بإيقاف حساب روحانيَّة كورونا، ثمّ أخذنا الحساب لنعرف شخصيَّة الإنسان الذي حرمنا الهدوء في المنزل، فكانت المفاجأة!

فوجدنا جماعة من الشُّبان المجانين لم يجدوا ما يفعلوه في فترة الحجر الصحِّي، فتحُوا صفحة الشَّيطان يسيّرها فتيان وفتيات، واتّفقوا على نشر الإشاعات الكاذبة وترويع النَّاس. لمَّا تأكّدنا من الأمر اتّصلنا بالشُّرطة وأبلغنا عنهم، فكان مصيرهم السِّجن لنشر الأكاذيب والمغالطات.

وفي تلكَ اللّيلة استيقظ ماميدو ليلاً على السَّاعة الصِّفر للقيام بالطّقس الذي طلبته منه صديقته روحانيَّة كورونا، وقام بما كان يقوم به يوميًا، ثمّ عاد لفراشه ليتكلّم معها كما كان يفعل قبلا، فلم يجد حسابها. نهض من فراشه وأشعل الضّوء وجلس في صالة الضُّيوف وأخذ يقلبُّ الصّفحات بحثًا عن

صفحة روحانيَّة كورونا، فلم يجد شيئا، خرجنا من الغرفة وجلسنا معهُ للتّخفيفِ عنه...

لم يخبرنا بالأمر... ذهب لفراشه وكان قد قام بآخر طقس طلبته منه وهو وضع عشبة فوق النّار لتنتشر رائحتها في المنزل فتذهب الوباء، فشعر بضيقٍ في التنفّس، ثمّ عاد ليجلس معنا.

جلسنا نلوك الكلام لوكًا ونشاهد الأخبار وماميدو يفرقعُ أصابعه بين الفينة والأخرى، متضايقٌ جدا، ينظرُ إلى الهاتف آلاف المرّات للبحث عن الصَّفحة إلاَّ أنَّه لم يجدهَا، ضحك في تلك اللّحظة محمّد عثمان، فانقضَّ عليهِ ماميدو ضربًا باليمين ليفرغ شحنة الغضب، قمت بهزّ رأسي يمينا وشمالاً لمحمّد عثمان لكيلا يخبر ماميدو بإيقافنا للحساب، إلاَّ أنَّ محمّد عثمان اغتاظ منه فأنطقه الغضب:

"أنا من أوقف حساب روحانية كورونا"، انزعج منهُ ماميدو كثيرا وتشاجرا كأنّهما أطفالٌ صغار، وأنا بينهما أحاول إيقاف الصِّراع المشتعل بينهما، ثمَّ أخبرتُ ماميدو أنَّ تلك الصّفحة لجماعة أشرار تنشر الإشاعات وتقوم بهَكْرِ الحسابات واستعمالها، فهدأت نفس ماميدو وجلس يأخذ نفسه من

الشّجار الذي دار بينهُ وبين محمّد عثمان، جلسنا نتابع نشرة أخبار الثّامنة ليلاً وما إن عطس ماميدو حتّى هربنا من صالة الضُّيوف إلى غرفتينا لننام، أصبح جميعنا يشكُّ ببعضه البعض، ظنَّ ماميدو أنّنا منزعجان منه لذلك ذهبنا، فنادى علينا:

"محمّد عثمان! إلياس! أنا آسف، تعاليا لنسهر قليلاً..."

ظنَّ ماميدو أنّنا منزعجان منه لكنَّنا خفنا عندما عطس وتكرّر عطاسه، الكلُّ فرّ هاربا من فوبيا الإصابة بالفيروس، لا أدري ففررنا منه أم من قدرنا الذي أوجدنا وراء البحار مع جنسيات مختلفة لها عاداتها وتقاليدها، نسينا أنّ المنية تطالنا حتّى ولو كنَّا في بروجٍ مشيَّدة وأنّ القدر لا يخطئ أحدا.

وعلى غير العادة استيقظنا على صوت قادم من غرفة ماميدو، سمعنا سعالاً يخرج من غرفته، ففوجئنا، هممنا إليه هرولة، وما إن وصلنا باب الغرفة حتّى أبصرناه يتصبّبُ عرقا، تقدّمت وناولته كوب ماءٍ وقلت له: اشرب كثيرا حتّى لا يجفّ حلقكَ...

أمضى ماميدو ليلة بيضاء وهو يسعل، وفي اليوم الموالي اشتدّت الحمّى والسّعال عليه، فأخذنا نقترب منهُ خطوة ثمَّ نتراجع خطوتين، ينظر إلياس إلى عثمان وينظر عثمان إلى إلياس، فقد أوجسا في نفسيهما خيفةً، نطق ماميدو:

-أريدُ ماء، ماء...

أسرعنا للمطبخ هربا، حملنا كوب ماء وأخذ مجمّد عثمان يقول لي: «خذ له أنت الكأس» وأنا أقول: «لا خذ له أنت الكأس»، وأيدينا ترتجف خوفا وهلعا من أن يكون مصابًا بالفيروس... تأخرنا على ماميدو، فأخذ يجرّ نفسه وهو منهك القوى للمطبخ وما إن أبصرناه حتَّى سقط كأس الماء من يد محمّد عثمان، فقال لنا:

"تنحيا من طريقي"، فالتصقنا بالجدار وهممنا بالخروج من المطبخ. شرب ماميدو الماء وعادَ إلى غرفته واستلقى على سريره. أصابنا الخوف الشّديد من إصابة صديقنا؛ لأنّه الوحيد الذي كان يخرج للعمل. تشجّعنا وأخذنا القهوة لماميدو وما إن أبصرنا حتَّى جحظت عيناه: "ما بكما لماذا تضعان الكمامات والقفازات على أيديكما؟" فقال محمّد عثمان:

-هذا ما سمعناه في نشرة الأخبار من آخر تعليمات لمنظمة الصحّة العالميّة.

ماميدو: وهل نضع الكمامات في المنازل؟ ما بكما؟ تكلّما.

محمّد عثمان: نظنّك مصابا بالفيروس...

ماميدو: لا هذه نزلة بردٍ شديدة فقط، لقد اعتَرتني البارحة حمّى شديدة جدا لو وضعتما حبَّة بيض فوق جبيني لنضجت في دقيقة، وشعرتُ بضيقٍ بالتّنفس وتعرفان أنّني مصاب بالحساسية من مواد التنظيف، فأنا الوحيد الذي أنظّف الغرف بمواد التنظيف، أشعر أنّ جسمي مكسّر إلى قطعٍ...

بعدها نظر ماميدو إلينا فقرأ في عيوننا خوفا لم يره من قبل، وهو الذي كان يرينا شرائط الفيديو للشاحنات التي تنقل الجثث وتأخذهم لمكان ما وتحرقهم فيه...

فقلنا: لالا؛ هذه أعراض الإصابة بالمرض، السُّعال والحمى والصّداع وضيق في التنفّس...

تدهورت نفسيَّتنا، أصابتنا فوبيا المرض؛ لأنَّنا عكفنا على متابعة الأخبار بالتّفصيل ولم نشغل أنفسنا في بداية الأمر

بأشياء، لم نفكّر في مشاريع مستقبليّة، فظهرت علينا أعراض التّعب الشّديد، فانعكست حالتنا النّفسيّة على أجسادنا، فليس هناك مترجم للحالة النّفسيّة للإنسان غير الجسد، فقد تظهر أعراض يتوهَّمُها الإنسان لوحده، فيتداعى لها سائر الجسد بالسَّهر والحُمى.

ازدادت حالة ماميدو سوءًا، فاتّصلنا بالإسعاف وما إن سمع ماميدو صوت الإسعاف حتّى قال: "لست مصابا بفيروس كوفيد-19 صدّقوني، لقد استحممتُ البارحة بالماء البارد، قالوا لي: يعطي نشاطا للصّحة، فهلكت صحتي..."

-فعلنا هذا من أجلك يا صديقي.

-كلاَّ فعلتما هذا حتّى تتخلَّصا منّي، لن تتخلَّصا منّي بسهولة.

وصلت سيّارة الإسعاف، أخذ ماميدو يقاوم لكنَّه استسلم في آخر المطاف لكلام الممرضين المقنع، ثمَّ طلب منَّا اللّحاق به لنقوم بالتّحاليل للتّأكد من سلامتنا. ركب ماميدو سيارة الإسعاف لوحده وركبت أنا ومحمّد عثمان في سيّارة أخرى،

وصلنا إلى المستشفى وقبل أن يقيسا لنا درجة الحرارة أخذنا نتصبّبُ عرقا، فسألنا الطّبيب: "ما بكما، هل كنتما تعملان؟".

قلنا: لا...

فأدرك خوفنا، قاس لنا درجة الحرارة، فوجدها تقريبا (37.2 درجة) فقال لنا: "حرارة عادية"، فاستبشرنا خيرا....

وكان ماميدو قد أُخذ إلى غرفة التّحاليل ليجروا له الفحوصات...

وفي ذلك الوقت أخذنا نراقب ما يحدث في المستشفى، حركة غير عادية، كلّ الأطباء يرتدون ملابس واقية من الفيروس من أعلى الرأس إلى أسفل القدم، لا ترى منهم إلاّ العينين. لا يكلّون ولا يملون، كأنَّهم في معركة مع عدوّ مخفي. نعم إنّها معركة ضدّ فيروس خفيٍّ، لو ارتدى أحدنا ذلك اللّباس لشعر بالتّعب قبل أن يبدأ خصوصا في فصل الصَّيفِ...

ونحن واقفان حتّى لاحظنا إخراج عدد كبير من الجثّث وهي وسط غلاف بلاستيكي محكمة التّغليف، فاندهشنا من هولِ ما رأينا، وفي الوقت نفسه لفت انتباهنا طبيب ثلاثيني مسند ظهره

للجدار، أخذ يتدحرج رويدا رويدا حتّى جلس على الأرض ويده بالكاد تغطي نصف وجهه، يبكي بحرقة وبصوتٍ مسموع...

أسرعنا إليه وسألناه: "هل لك قريب في هذه الجثث التي أخرجت؟" فازداد بكاءً وقال: "أتمنّى لو أنسى وجوه الموتى التي لا أكاد أحصيها! خمسة أطباء من أصدقائي فقدتهم بسبب كوفيد-19، أصابهم الفيروس، كم أنا عاجز؟ مرضاي يموتون أمامي، أرى الألم في عيونهم يعصرهم ولا أستطيع فعل شيء..."

أملنا برأسينا رأفة به ثمَّ نطق محمّد عثمان:

هوّن عليك، الوباء يقهر الجميع، لكنَّ الله سيرحمنا ويُذهبَ عنَّا بأسهُ، ثمّ نطقت: وما أدرانا لعلّ هناك سرّا وراء هذا الوباء، هذا ما قالته لي ماريا.

الطبيب: من تكون ماريا، هل هي طبيبة؟

إلياس:نعم زوجتي طبيبة، دائما تقول إنَّ هناك سرّا وراء ظهور هذا الوباء سيكتشف أثناء المحاكمة.

الطَّبيب: المحاكمة! عن أيّ محاكمة تتحدّث؟

إلياس: محاكمة وباء كوفيد-19، سيحضرها الجميع حتَّى أنت ستكون حاضرًا.

الطَّبيب: ومن سيخبرني عن موعدها؟ وأين ستحدث؟ عندنا نحن الغرب أم عندكم أنتم العرب وفي أيّ قارة وبأيِّ لغة؟

إلياس: ما أعرفهُ أنّه سيحضرها الجميع، فالكلُّ معنيٌّ بالوباء، أمّا عن اللّغة فهي متاحة للجميع، أمّا مكانها فلا فرق عندنا، فما يجمعنا هو الإنسانيّة الحقّة التي لا تفرِّق بين الأبيض والأسود وبين العربيِّ والأعجمي إلاّ بالتّقوى، فديننا يدعو للسّلام.

تركنا الطّبيب يناشد أملاً باسمًا، وذهبنا لنستعلم عن أخبار صديقنا ماميدو، فسمعناه يردّد كأنَّه يهذي: ليست كورونا، ليست كورونا، لستُ مصابًا، هذه نزلة بردٍ فقط...

أشار لنا الطّبيب أن انصرفا، فانصرفنا وعدنا إلى المنزل وأحضرنا المواد المعقّمة، فالذي تعوّد تعقيم البيت وتنظيفه هو ماميدو لا أحد غيره، وكلّما لمسنا شيئا من الأشياء صرخنا: "آه؛ قد تكون ملوّثة". ذهبنا إلى فراش ماميدو ووضعناه في كيس

بلاستيكي ورميناه على جناح السّرعة في القمامة، ثمّ أسرعنا إلى بقيّة أشيائه وأخذنا نرشها بالمعقّم...

أصابتنا فوبيا من الحمى التي أصابت صديقنا، لم يترك حتّى جهاز التّحكم في تغيير القنوات وضعنا له المعقّم، وفي لمح البصر عقّمنا كلّ شيء ونحن الكسالى، فلا أحد كسول وإنّما يحتاج بعض البشر لصعقة كهربائيّة توقظ ضميرهم الميت وتبعد أفكارهم السلبيَّة عن حياتهم.

وبعد يومين سمعنا رنَّة جرس الباب فأسرعنا ونحن نضعُ القفازات والكمامات ومحمّد عثمان يحملُ في يده قارورة المعقّم وما إن فتح الباب حتَّى أبصر صديقنا ماميدو عائدا ففوجئنا! وأخذ يرشُ عليه المعقّم، فصرخ في وجهه: "كفى، لست مصابا بوباء كوفيد-19 لم آكل من تفاحة آدم-19، فقط نزلة برد شديدة"...

سقطنا على الأرض من شدّة التّعب من تنظيفِ المنزلِ، وماميدو يحمل دواءه في يده، نظر إلى المنزل فوجده نظيفا جدا، فابتسم ابتسامة عريضة ونظر إلينا ثمَّ قال:

وأخيرا أصبحتما تنظِّفان المنزل أحسن منِّي، وسرعان ما عطس من رائحة مواد التنظيف لأنه مريض بالحساسية، فابتعدنا عنه، فقال:

ألم أقل لكما أنِّي لست مصابا بالوباء، أصبحتما مملّين، ثمّ ذهب لغرفته، جال ببصره هنا وهناك فلم يجد فراشه، أخذ ينادي:

إلياس، محمّد عثمان: أين فراشي؟

لم نرد عليهِ...

جاء إلينا وسألنا: "أين فراشي؟" فقلنا: "رميناهُ، شككنا أنّك مصاب بكوفيد-19".

ثار غضب ماميدو وذهب لفراش محمّد عثمان وإلياس وأخذ يطوي البطانية والوسادة وضع الكلّ في أكياس القمامة وأخرجه عند مدخل العمارة وانتظر الشَّاحنة التي تأخذ القمامة، ولمّا تأكّد من رمي الفراش عاد لصديقيه فوجدهما يضحكان عليه وقالا له: "ارتحت الآن؟"

-نعم ارتحت، فلنذهب لشراء فراش جديد، ذهب الأصدقاء واشتروا فراشا جديدا.

أثّرت تلك الحادثة على ماميدو، انعزل في غرفته، قليلاً ما يخرج منها إلاّ إذا سمع ذلك الصّوت تخرجُ منه حروف كأنّها السَّلسبيل والكوثر، يرتجّ كيانه، ويأخذ عقله يسألُ عن هذه الكلمات التي تحملُ في طياتها نفحات ربانيَّة، تتحرّك دواخلهُ ليتساءل عن السرِّ المكنون وراءها، وتتحرّك رجلاه كأنّهما تخضعان لأوامرٍ غير أوامر عقلهِ، فعقلهُ يؤمن بشيء وقلبه يسوقه لمنبع ذلك الصّوت. يذهب اتّجاه الصَّوت، اتّجاه الكلمات السّاحرة، إنَّه الصّوت النَّدي لإلياس وهو يرتّل كلمات ليست كالكلمات، فيقتربُ منه ويجلسُ ليستمع، يأكله الفضول، لكنّه لا يوقف إلياس حتّى يكمل ويتوقّف لوحده.

أخذ ماميدو يسأل: ما الذي يحدثُ لي؟ أشعرُبشيء غريب يجتاح روحي!

أتصدّقني يا إلياس؟ الكلمات التي تنطقها تخترق قلبي قبل عقلي ...

إلياس: أتفهم ما أقول؟

ماميدو: حقيقة لا أفهم شيئا، لكنَّني أشعر بأمرٍ غريب يهزُّ اعتقادي! وضعتُ يدي على صدري، وإذا به ينبض بقوَّة، كأنّه كان ميّتا قبلاً، شعور لا أستطيع وصفه، شيء ما يتحرّك داخلي...

ما هذا النّشيد وهذا اللّحن الجميل؟ لقد هدأت روحي له، فقال إلياس:

-هذا ليس نشيدا ولا لحنًا، بل هو أسمى منهما بكثير!

لقد سمعت الكثير من الأغاني والتَّراتيل والتّرانيم في مختلف الدّيانات، لكنّها كلّها لا تشبه ما سمعته الآن.

ترى هل يعيش العالم فراغا روحيًّا لأنّ المادّة لم تترك له مكانا؟ هل يتيهُ البشر كلُّهم بمختلف دياناتهم أم أنّهم رغم اختلافهم يعيشون سلامًا وتوافقا؟ أصبح العالم يعيش هاجس الوباء، فما وجدوا غير العودة لدياناتهم يتوسّلون ويتضرّعون، حتّى إنّي أذكر مشهدا في إيطاليا لمّا اصطفَّ المسلمون في إحدى ساحات إيطاليا وسجدوا لله، قلدَّهم الإيطاليون في حركاتهم وسكناتهم وسجدوا لله طلبا لرفع البلاء، ربَّما ملأوا ذلك الفراغ

الموجود داخلهم؛ فدواخل الإنسان في بعض الأحيان نملأها بالخرافات والتّرّهات والهموم حتَّى إذا مشينا شعرنا بتعبٍ شديد مع أنَّنا لا نحملُ أثقالا، لكنَّ أثقال القلب أثقلُ الأثقالِ، لا تخرجها إلاَّ معجزة من معجزات الكون. وهذا ما شعر به ماميدو لمّا سمع إلياس يرتّل وسألهُ: ما هذا؟

إلياس: إنَّهُ كلام الله الذي نفخ فينا الرّوح، فكلَّما سمعنا كلامه ارتاحت دواخلنا وانبسطت أنفسنا.

أعجب ماميدو بالقرآن، بحروفه وآياته أيّما إعجاب وطلب من إلياس وعثمان أن يعلّماه ترديده، فأخذا يقرآن الكلمة ويطلبان منه إعادة ذلك؛ لأنّهُ لا يتقن اللّغة العربيَّة وكثيرا ما كانت تأتيهِ صعبةً، فما استطاع نُطق الكلمات جيّدا، فقرَّر إلياس وعثمان أن يعلِّما ماميدو اللّغة العربيَّة أولا حتّى يستطيع قراءة القرآن، ففي زمن الوباء منع العمل وتوقّفت الدّراسة.

أراد إلياس استثمار الحجر المنزلي في فعل أمر مفيد، فمن فرص الأزمات والمحن تولد الأعمال الخالدة. تحسّن حال ماميدو، لكن حال العالم لم يتحسّن، لا يزال وباء كوفيد-19 يحصد الأرواح بالعدوى والخوف هو الآخر أصبح وباء آخر وهاجسا لا حدَّ له...

****

مرَّت الأيّام ونحن على ذلك الحال، ننتظر قدوم الربيع ليذهب الوباء كما ذكرت بعض نشرات الأخبار، وفي يوم 01-04-2020 ساءت أحوالنا؛ لأنّنا كنَّا نتأمّل الخلاص من هذا الوباء في حلول شهر نيسان. أخذ ماميدو يتذمّر من الشّائعات وقال لصديقه: "أظنّ أنّها كذبة نيسان، ألم يخبرونا أنّ الوباء سيرحل بحلول الرّبيع؟" فقال له: يا إلياس للعجب كذبة نيسان تتكرّر في موطنها، فسأله ماميدو: "لم أفهم، هل تقصد أنّ كذبة نيسان أو كما يسمّونها AprilFool انطلقت من هنا!"

نعم، كانت من هنا، ألم أقل لكما إنَّني جئت إسبانيا شغفا لمعرفة المكان الذي سكنه أجدادي؟ لقد قرأت عن هذه القصّة التي تتكرّر ويتجدّد ميلادها مع أحداث العالم. فبعدما سقطت الأندلس اختبأ البعض في كهوف الجبال، فخرج الإسبان الصَّليبيون ونادوا بالناس أنه من يريد النّجاة بنفسه وأهله وماله فليذهب إلى الشواطئ الجنوبية فإن سفنا كبيرة قدمت من المغرب لتأخذ من تبقى من المسلمين. وبالفعل صدَّق المسلمون هذه الكذبة وذهبوا جميعا إلى الشواطئ الجنوبية لإسبانيا عند مضيق جبل طارق، وهنا كانت الخديعة حيث كان الجيش في

انتظارهم يحيط بهم من كلّ جانب كإحاطة السِّوار بالمعصم، رفعوا سيوفهم في وجه المسلمين فذبحوا النِّساء والرِّجال والأطفال والكبار حتى اختلطت بمياه البحر دماؤهم وسرقوا أموالهم، بعد أن سرقوا أرواحهم وكان ذلك في الأول من نيسان؛ حيث سمِّيت هذه الخديعة بسمكة نيسان؛ لأنَّهم كذبوا على المسلمين واصطادوهم كالسَّمك.

عشنا روتينا يوميا وسط غرف صغيرة بالكاد نتنفّسُ فيها، وجدنا أنفسنا في مثلث؛ المطبخ، النّوم، الحمام... وبينهم مشاهدة التّلفاز، لا نتابع إلاّ أخبار ارتفاع عدد ضحايا وباء كوفيد-19 وارتفاعه الرّهيب، فقد بلغت إسبانيا في معدل وفياتها في اليوم 700 متوفٍ وفي إيطاليا كذلك. أصبحتا بؤرة وباء بعد الصِّين وأمريكا. نشاهد ما تتداوله نشرات صورٍ للجثث وأخذها إلى مكان وترمى لتحرق في بعض الدّول وتدفن في بعض الدّول، نطق: "الله أكبر يحرقون الجثث! أصبح الجحيم وراء البحار، الحمد لله أنّني مسلم، ألم يقولوا أنَّ الجنّة وراء البحار؟ وأخيرا سقطت المقولة المحشوة بخدعة".

يسأله ماميدو: ماذا تفعلون أنتم في ديانتكم؟

-نحن لا نحرق الجثث، ففي ملّتنا نكرم الميّت بغسله ودفنهِ.

وهنا جدليّة أرّقت الوجود بين حرق الجثث بالنّار في بعض الملل والدّفن في التّراب في الديانة المسلمة.

ماميدو: حتّى نحن في دولنا نقوم بدفن الميّت...

انسحبنا ثلاثتنا إلى غرفنا والخوفِ بادٍ على وجوهنا، فالخوف من انتشار وباء كوفيد-19 يقتلنا، خصوصا أنّ ماميدو ومحمّد عثمان جاوزا سنّ الأربعين، وكلّما تقدَّم العمر بالإنسان ضعف جهاز مناعته حسب ما أورده بعض الأطباء، وعلى هذا الحديث الذي انتشى من ضوء القمر غفونا على الدّفن في التّرابِ والحرق في النَّار.

حديثُ التّرابِ والنّار

أرّقنا نحن المغتربون النَّوم، فكانت ليلتنا بيضاء، كلَّما أغمض أحدنا جفنه حتَّى تخيَّل التُّراب يُرمَى فوقه، فينهضُ مفزوعًا، فقد أثرنا قبل نومنا حديثًا ليس ككلّ الأحاديثِ، فالحديث في زمن الأوبئة أصبح شبيهًا بوجه شبح ينظر إليك ما إن تستدر حتّى ينقضّ عليك. طلَّق الأصدقاء النّوم إلى حين رجعة النّعاس ومداعبته لجفونهم. نهضَ عثمان وماميدو ليعودا إلى صالة الضيوف ويشعلا التلفاز حتّى وجدا إلياس فاتحا القرآن الكريم ويقرأ، وما إن رآهما حتّى وضع كتابه فوق محملِه وقال لهما: "حدث لكما مثلما حدث لي"، فهزّا رأسيهما وجلسا يتسامرون مع بعضهم البعض، ويبدو أنّ حديث التّراب والنّار هو من سيجعل ليلتهم بيضاء...

ضغط محمّد عثمان على زرّ جهاز التّحكم للتلفاز ليسمعوا صوت مقدِّمة الأخبار وهي تشاركهم الحديث عن موضوعهم دون استدعائها:

«ها هي الأرض تفتح بطنها كلّ يومٍ وتقول: "هل من مزيد؟" إنّه الضّيف الذي حلّ عام 2020، إنّه فيروس كوفيد-19 الذي

أخذَت فيه الأرواح تتصاعد بالآلاف. تستيقظ صباحا من فراشك، فتحملك الأخبار من بلد إلى بلد، على أرقام تظنّ العين المجرّدة التي لم تستطع حتّى رؤية هذا الفيروس أن تجزم أنّها من صنع الخيال، هذه الأرقام يسجّلها التّاريخُ بأحرف من الدُّموع الحارقة، بأحرف من الرّماد الذي سيولد منه الفنيق. إنّها الحقيقة، إنَّه الواقع المرّ الذي وجدنا أنفسنا نعيشه عام 2020، بدأ الموت يزور البشر ويحصدهم في موسم الشّتاء ثمّ الربيع، فنتساءل من هول ما نرى: "أليس الحصاد في فصل الصّيف؟" الكلّ يتساءل وراء سرّ هذا الوباء، فالعالم كلُّه عاجز عن إيجاد اللّقاح لهذا الوباء الذي يفتك بالبشر في كلّ دقيقة، ترتفع أعداد الموتى في بلد الوباءِ الصّين، لتصل في أيّامه الأولى إلى...، ثمَّ تسابقها إيطاليا سباقا لم يعرفوا لهُ زمنا، إيطاليا تودّع أحبابها كل دقيقة، كل ثانيّة على لحن الدّموع، وتليهما أمريكا بإحصاء موتاها، لتقفز إسبانيا في 26 نيسان إلى أكبر عدد من الوفيات وتليها الدول الأخرى. نتساءل جميعنا: "ما بال العالم يسقط برجهُ؟" تتوحّد الدّيانات دون قصد منها لدعوة الخالق أن يرفع الوباء، فبعض الدول كثرت عليها الجثث حتّى أصبحت تحملها

بالشّاحنات الكبيرة وترميها في مكانٍ ما، هذه نار تحرق الأجساد، وتقول هل من مزيد؟ هذا يحرّق جثث موتاه والآخر يدفنها تحت التّراب، كانت هذه أخبار اليوم، سنوافيكم بكلِّ جديد إلى موعدٍ لاحق».

تملّكني الخوف وهاجس الموت في الغربة، غيرت القناة فوجدت القناة الأخرى تتحدّث عن الوباء، أينما وليّت وجهي تحضر جدليّة الموت والحياة سئمت من كلّ هذه الأخبار يا صديقي إلياس.

لعلّها يا صديقي ماميدو جدلية قديمة أحياها الوباء، يوم قال الشَّيطان خلقته من طين وخلقتني من نار، هذه الجدلية تؤرِّقني كثيرا.

أعرف ذلك لأنّكما مسلمان، وفي الدِّيانة الإسلاميَّة يدفن الميِّت، أمّا في بعض الدِّيانات الأخرى فتحرق الجثث.

إلياس: كيف عرفت هذا يا ماميدو؟ فأنت لست مسلمًا.

سأخبركما في الوقت المناسب .

محمّد عثمان: على لسانك كلام يا إلياس، هيا ازرعه لينبت في حينه.

أريد أن أطلب منك أمرا...

تفضّل يا صديقي...

-لو قدِّر عليَّ الإصابة بهذا الوباء ولقيت حتفي فاحرص على دفني ولا تدعهم يحرقونني...

احمرَّت عينا محمّد عثمان وقال لإلياس: ذاك هو طلبي أيضا... كنَّا نعتقدُ أنَّ الجنَّة وراء البحار، والآن نحنُ نعيش زمن الوباء أصبح الجحيمُ وراء البحار، يا إلهي رحماكَ!

-لا أدري كيف لهؤلاء النَّاس أن يحرقوا جثث أهاليهم وهم في الحياة لا يقتربون من النَّار؟

-أمرهم يحيّرني...

محمّد عثمان: رغم تطوّرهم العلمي إلاَّ أنّهم انحرفوا عن المسار الصّحيح، درسوا السَّطح ولم يلجوا أعماق الإنسان... يحيّرني أمرهم! ينطق إلياس:

الحمد لله على نعمة الإسلام، فهو وحده من يبعدنا عن هذه الأمور.

يتدخّل ماميدو الذي لم نعرف ديانته حتَّى الآن؟

لم تتجوّلا العالم مثلي، فقد عرفت أغلب الدّيانات أثناء ترحالي من دولة إلى أخرى، فجنس يعبد المسيح معتقدا أنَّه ابن الله، وفي اعتقادي كيف يُعبد صليب لا يحرِّك ساكنا، نظريّة باطلة!

وأجناس تعبد النَّار فيحرقون جثثهم فيها، أعتقد أنّهم زاغوا عن الحقِّ، فلو كان لهم ذرّة عقلٍ ما فعلوا ذلك، يحرقون أحبّاءهم في النّار، أتراهم كانوا يجلسون فوقها في الحياة حتّى يحرقوهُم وسطهَا بعد الممات؟ أظنّها رحلة مجهولة المصير.

إلياس: أنت لست مسلما كيف تحلّل هذا التَّحليل المنطقي؟

لربَّما حان الوقت في هذا الزّمن وبهذا الحدث الذي يرسم لنا قدرا محتوما أن أرسمَ مساري الحقيقي وأتّبع سبيلاً كنت أبحثُ عنه منذ سنين، أتظنُّون أنَّنا نختار ديننا منذ ولادتنا؟ فنحن نولد على الفطرة، وعندما نكبر نتبّع آباءنا، وعندما نعقل لا نشعر

بالرّاحة اتّجاه ديانة آبائنا، نشعر بنقصٍ روحيٍّ نبحثُ عنهُ هنا وهناك وقد وجدت هذا عندما كنت أستمع إليكَ خلسة يا إلياس.

حينها قرَّر إلياس أن يقوم بمُساعدة ماميدو ليجد ذاته الضَّائعة، وهما على ذلك الحال حتَّى رأيا على شاشة التّلفاز وكانت عقارب السَّاعة تشيرُ إلى التَّاسعة ليلا، كانت هناك أضواء في شوارع ألمانيا، صوت الأذان يرفع هناك: "الله أكبر، الله أكبر" أصبحت تصدح عاليًا في أغلب دول أوروبا، لعلَّه هو الخلاص من هذا الوباء، هذا ما قاله أحد منشطي القنوات الفضائيّة، وهو ما قاله غيره يوم سجد الإيطاليّون وراء المسلمين: لعلَّهم يبحثون عن طاقة متجدِّدة من الأرض...

-بل يسجدون للواحدِ القهَّار...

ماميدو: الآن حان الوقت، أودُّ أن أخبركما بسرٍّ أخفيته عنكما مدّة شهرٍ، لم أشأ أن أخبركما حتّى أتأكّد من نفسي ومن شعوري.

-قهقهت، ماذا يا ماميدو؟ هل تريد الزواج أم أنّك عاشق؟

-لا هذا ولا ذاك، أتَذْكُر يوم كنتُ أسمعك وأنت تقرأ القرآن وكنت أسألك الكثير من الأسئلة وأنت كنت تحاول أن تجيبني بتصرفاتك وأفعالك أكثر من كلامك؟ كثيرا ما حاولت يا إلياس أن تدخلني الإسلام بالترغيب في إيجابياته، كنت كلّما قرأت القرآن كان قلبي ينبض بسرعة وأشعر بشيء ما في داخلي ينتفض ويقول لي: "إنّ هذا الأمر يخصُّني"، هذا اتّجاهي الذي أبحث عنه منذ سنين. لطالما لم تهدأ روحي، كنت دائم البحث عن السلام الداخلي الذي لم أجده في أيّ دين إلاّ الإسلام، لقد آمنت بالله وأسلمت له، ماذا يجب علي أن أفعل الآن؟

إلياس: الحمد لله على توفيقه، الذي لم أستطع فعله منذ خمس وعشرين سنة في أوروبا فعله القدر في زمن الوباء، صدق المثل القائل: ربّ ضارةٍ نافعة.

مرَّت الأيَّام والشُّهور من بداية الوباء، من شهر شباط إلى اليوم والحال على حاله. مرَّة يصعد مؤشر الوباء فيصيب النّاس بالهلع ويضيّق عليهم الخناق بفرض الحجر الصحي وتحدّد توقيتهُ وزارة الصحة لكلّ دولة، ومرة أخرى ينخفض مؤشر الإصابات فيخفّف الحجر على النّاس. جميعنا كان يتابع تلك

اللَّوحة الرقمية التي تظهر مؤشر الوباء في كلّ دول العالم، كانت عيناي تتصفّحان أسماء الدول إلى أن وصلت إلى بلدي Alegria، نسيت أنّي في إسبانيا، كنت أقرأ عدد الإصابات وأعداد الضحايا جراء هذا الوباء، وكان صديقي محمّد عثمان ينتظر المؤشِّر ليصل لبلده هو الآخر، يتابع بعينيه حتى يقرأ اسم بلده هو الآخر Soudan، وما إن لمح بلده حتّى ذرف دموعًا حارة، وماميدو هو الآخر لا يرتاح حتى يقرأ عدد الإصابات في بلده Italie، فالمهاجر مهما طال غيابه يبقى متعلِّقا ببلده الأم مهما ابتعد. لا زلنا نشعر بالحبل السري الذي يربطنا بالبلد الأمّ، وما إن نعرف أحوال بلداننا حتّى يطمئن وهج الطفل المبعد عن أمّه بسبب ظروف العيش، وبعدما نطمئن على بلداننا نعود لمعرفة الإصابات في إسبانيا فقد ارتفعت ارتفاعا رهيبا جدا. وما أرعبنا هو عدد الوفيات في اليوم الذي وصل إلى ذروته وبلغ أربع مئة ميِّت في اليوم، فالأرواح هناك أخذت تصعد للسّماء كأنَّها فراش مبثوث لا نبصرهَا بعيوننا المجردة ولكن نبصر كثرة الجثث. ظنُّوا أنَّ القيامة اقتربت بفعل الأحداث التي لم يألفوها، صراع الفكر

بيننا احتدم حول قضايا أثرناها في زمن الوباء ولم نثرها من قبل، سأل ماميدو:

-ماذا يحدث للجسد الذي يُحرق؟

فقال له إلياس: تصعد الرّوح للسَّماء، فالروح دائما ترقى وتسمو بالفضائل... أمّا الجسد فيقترن بالشهوات والملذّات لذلك يبقى على الأرض، فكلَّما سمت الروح بالفضائل تشعر بالرضى، وكلما طغت وتجبّرت تشعر بثقل الجسد، كأنّه يزن قنطارًا من فرط أفعاله...

سأل ماميدو صديقيه وهو يحاول إضحاكهما: هل أنا أضم بين جنبي روحا عائدة من الماضي؟ أشعرُ أنّي أحملُ روح شيخٍ كبيرٍ في هذه الأيّام، فأنا متعبٌ متثاقل الحركات...

قهقهت، أصبحت فيلسوفا في زمن كورونا، ابتعد عن هذه الاعتقادات التي تأخذ بك إلى الهاويّة، لا تحلّ روح مكان روح، بل تصعد روح المسلم إلى بارئها...

ماميدو: لطالما لازمني إحساس جميل حين كنت أرفع بصري إلى السّماء، لم تكن تجذبني زرقتها بقدر ما كنت أتساءل عن هذا

الكون العجيب! لم تكن الطّبيعة تسحرني بمناظرها الخضراء وبسهولها وجبالها وكهوفها ووديانها وفيافيها بقدر ما كنت أعجب كلَّ العجب لمن أوجدها!

تأمَّل يا ماميدو فالكون كلُّه مسخَّر للإنسان في كلّ مكان، مهما اختلفت دياناتهم، لكنَّهم يتوافقون على التّحيّة. انظر السّاعة الآن تشير الثّامنة ليلاً، اصطف النّاس على شرفات نوافذهم، يصفِّقون صغيرهم وكبيرهم، يحيّيون أطباءهم أصحاب المآزر البيضاء، فقد أصبحوا يلقَّبون بالجيش الأبيض، جنود الحرب الذين لا يستسلمون، يُضحُّون بأنفسهم وبعائلاتهم، يعودون مساء لعائلاتهم، يشكُّون في حملهم للفيروس معهم، يقفون عند الباب ينزعون كل ملابسهم الخارجية، ويضعونها في كيس ويضعون أرجلهم في ماء معقَّم خوفا على عائلاتهم. الأمّ من شرفتها تذرف الدُّموع لتتناثر هنا وهناك، المصوّر يلتقط الصّور لتكون ذكرى لهم يحتفلون بها، تغيَّرت عادات التّحيّة لم يعد هناك تقبيل ولا ملامسة، أصبح العالم الأوروبي يحيّي أطبّاءه بالتّصفيق في وقت واحدٍ على السّاعة الثامنّة ونحن نرفع التكبيرات والآذان في كلّ بلادنا...

استدرتُ إلى صديقي محمّد عثمان فوجدته غارقًا في دموعه، اقتربتُ منه وأخذت أهدِّئ من روعه، فأخبرني أنّ عائلته قد تضرَّرت جرَّاء فيضانات نهر النّيل في أيلول 2020، وما يؤلمه أكثر كيف للعالم أن يرى وينظر ولا يسارع لتقديم المساعدات والإغاثة؟ فكيف نحارب فيروسا مخفيًّا ونقول عنه عدوّا؟

بلادي تغرق ولا أحد يلبّي النّداء. أين الإنسان الذي يرى بلادي تغرق في طوفانها؟ فهل عدوّ الإنسان إلاّ الإنسان؟

أنا هنا قابع وراء البحار، حتّى إنّي توقّفت عن العمل، كيف عساي أساعد عائلتي؟ كل وسائل النّقل متوقّفة.

-هوّن عليكَ يا محمّد عثمان، هم في رعاية الله، كما أنّهم تعوّدوا فيضان نهر النيل، سيدبّر الله أمورهم، وأكيد أنّ الدّول ستهبُّ لمساعدتهم، المهم أن يكونوا بخير. أصبح الهمّ متفرّقًا لست الوحيد من يحزن لفراق أحبّته في زمن الوباء، أنا أشعر بك وأتألّم لحالك وحال السودانيين أحبابنا، كما تألّمت لحال إخواني اللُّبنانيين في انفجار مرفأ بيروت. الحزن منتشر في كلّ بلداننا العربيّة، ما لنا غير الصَّبر. انظر لحالي بعيد عن أهلي وعن زوجتي التي تعاني غربتي غربتين، فقد أخبرتني زوجتي **ماريا** عن أختها **سِيدرا** التي علقت هي الأخرى بالأردن ولم تجد طريقة للعودة لبلدها الجزائر.

استضافة في زمن الوباء

مرّت الأيَّام الطوال واللّيالي الحالكة والمغتربون على حالِهم، تأكل الغربة منسأتهم، حالهم حال كلّ البشر، فهناكَ من أوجد بيته سِجنا لهُ، وهناك من عكفَ على هاتفه يرى صورته بين كلِّ الصور، وهناك من انشغلَ بالأخبار يرقبها عساهُ يتلقّفُ لقاحًا لعقولٍ شاردة ولنفوس وسوس لها الشّيطان، وهناك من أوجد مكانًا لخلوة الذّاتِ بواجِدها وموجُودها، فالكلّ في هذا الوقتِ العصيب يبحثُ عن ذاته الضّائعة بين الأخبار المروِّعة وبين الأعدادِ الهائلة للموتى. هناك من وجدها بين جنباته وهناك من وجدها بين دفات الكتب يقلبُها يمينا وشمالا، وهناك من وجدها في مناجاة بينه وبين خالقه في ثلثِ اللّيلِ الأخير. أصبح الكلُّ يبحثُ عن السَّلامِ الدَّاخلي، فالمعركة داخل أسوار القلوب ملتهبة شوقًا لأحبَّة وراء البحار لا نملك لهم إلاَّ دعوة في جوفِ اللّيلِ. والمعركة الأخرى بين العقول في اختبار اللّقاح، ومعركة بين ذوي الألباب بين فتوى وفتاوى... فأقوى المعاركِ ليست ضدّ عدوٍّ ظاهر، بل أقوى المعارك ضدّ عدوٍّ لا تبصره أنت في حين يبصرك،

يحرمك نومك ويجعلك تسامر القمر في ليلته البيضاء، عدو أصغر من الرصاصة ذاتها، فكيف لك أن تجاريه؟

كنت بين الفينة والأخرى أسأل سيدرا عن حالها، لعلّ أمورها مثل باقي المغتربين الذين كان حظهم تعيسا لأنّهم اختاروا السفر في وقت غير مناسب، لكن ما أدراهم بحلول الوباء فجأة؟ فهناك من ذهب للعلاج، وهناك من ذهب للعمل، وهناك من ذهب طالبا للعلم كحال سِيدْرَا التي تسافر من دولة لدولة طلبا للعلم، وهذه المرّة اختلفت رحلتها لأنّها زامنت الوباء، أصرَّت على السفر في بداية الوباء وكلّها حماس لزيارة الأردن خاصة العاصمة عمّان...

تنزل أختي سِيدْرَا الطالبة الجامعيّة من أجل تربص في جامعة عجلون، بين ترتيب أغراضها وأفكارها وجدت نفسها حلّت في مطار الأردن، تستقبلها المرأة الأردنية فلسطينية الأصل في بيتها مع أهلها وعيالها، دون شك منها أنّها قد تحمل الوباء لهم، بل استقبلتها في بيتها. وكانت سِيدْرَا قد وجدت نفسها في حضن عائلة ليست ككلّ العائلات، عائلة أحبّتها وآوتها في ظرف عصيب. تعلّقت بصغيرهم سِيدْرَا الذي يدعى **سلطان**، كذلك

الطفلة **حلا** تحاول التكلم معي لكنّها خجولة جدا، تكلمني الكنّة الكبرى: "لا تقلقوا على سِيدْرَا هي في عيُونَّا، جيبي أمّك يا ماريا وتعو عنّا"...

ما أجملها من عبارات تسقي الأرض دون ماء فيصعد الوباء للسّماء!

يُظهِر رأسه ثمّ يختفي، إنّهُ سلطان الصّغير لا يتجاوز عمره العامين ينظر إليّ من وراء البحار عبر شاشة لا يتعدّى طولها السنتيمترات، يبادلني الابتسامة التي أرسمها على شفتي لأظهر لأختي أنّني على ما يرام، تكلمّني سِيدْرَا وتسأل من فيض الشوق: "كيف حال أمّي؟" فأردّ عليها: "هي بخير".

يأتيها سلطان ويأخذ الهاتف عنوةً ليتكلّم معي، أكلمه بلهجتي الجزائرية لكنّه يُهديني ابتسامته الصّغيرة لتعبر قلبي دون جوازات. وجهه الملائكي مألوف عندي، فأخذت مشاعري تنجذب نحوه، فقلت: "مرحبا" وأشرت بيدي، فارتسمت على وجهه خريطة الزيتون، لم يفهم ما أقول له. أخذ يلوّح برأسه يمينا وشمالا، والطِّفلة **حلا** الصَّغيرة بوجهها الملائكي متوسط صدر أختي، عمرها لا يتجاوز الستّ سنوات، كأنّها تعرفها منذ زمن.

أعطتها سِيدْرَا الهاتف وقالت لها: "هيَّا تكلَّمي"، فقالت:

-"كِيفِك يا دكتورة أنا بحب سِيدْرَا كتير كتير، خلوها عنَّا شوي" أسرت قلبي بلهجتها الجميلة، ظنّت أنّي سأطلب من سِيدْرَا العودة، عجبا كيف تلتصق بأختي! أكلُّ هذا الحبّ لابنة الجزائر يا ابنة الزيتون وصرخات الحجارة، فوجئت من كلامها، أخذت الأفكار تتلاطم أمواجها في كوكبة رأسي، وأخذت أسأل نفسي:

-من تكون هذه العائلة؟ وأيّ رابط يجمع بيننا وبينهم؟ أهو رابط العروبة؟ أم رابط الأخوّة أخذ يستعيد مجده؟ أم الدين أم الإنسانيّة؟ وفي هذا الوقت نفسه زارني الحنين نفسه والشّوق لأرض الكنانة مصر التي زرتها مع بداية انتشار الوباء، أخذ يدغدغ مشاعري، حبل ما يشدُّني إليها، لحد الآن لم أرتوِ من نيلها، لم أشبع من طيبة ناسها وحلاوة لسانهم. وبعد مدّة أدركت روابط الأخوّة بيننا في السّراء والضّراء، آه لو يعود زمن جمال عبد النّاصر ليحكي للأجيال قصّة لحمة البلدين، وليس بعيدا عن هذا الحديث في ظلّ الوباء وعشية احتفالنا بإعادة رفات شهداء ثورتنا التحريرية والتي مضى على تهجيرهم مئة وسبعون عاما. ركبت قارب البحث عن أسماء الشهداء وأصولهم،

فوجدت للنيل حضرة ولأرض الكنانة بصمة بدماء شهيدها الذي رسم خريطة الأخوة بدمائه، ووصل حبل المودة حتّى بعد مماته، فمن بين الرُّفات والجماجم التي كانت في متحف الإنسان في باريس واستعادتها الجزائر عشية الاحتفال بعيد الاستقلال الثامن والخمسين عام 2020، وجدت اسم الشَّهيد المصري "موسى بن حسن الدمياطي الدرقاوي (ت1849) الذي حمل رقم الجمجمة 5942. هذا الرّجل العلاّمة الذي نفخر به كثيرا كونهُ استوطن مدينة غرداية فاستُقبِل استقبال الفاتحين لتعطُّش السكان لأهل الدين واعتقادهم بكراماتهم، وبنوا له زاوية ومنحوه أراضٍ وحدائق تعرف الآن بزقاق الحجاج، مكث بها سنتين، والتف الناس حوله. مثل هؤلاء الرّجال يُصنع التّاريخ وتحيا ذكراه من جديد، وليست ذاكرة التّاريخ من يحييها فينا، بل يحيي روح الأخوَّة الحقّة فينا، حينها أدركتُ أنّ للعروبة جذورا كثيرة لكنّ الشجرة واحدة لا يمكن تعدّدها...

على هذه الذكريات التي أيقظتها المغتربة سِيدْرَا رحت ألملمُ حلمًا لعلّي أزورها بعد ذهاب الوباء، ما وجدته في مصر وأهلها من طيبة وجدته سِيدْرَا في العائلة الفلسطينية الأصل، أردنية

النشأة، كانت العائلة كبيرة فلا ضيق عندهم، قلوبهم تسعُ الجميع بمحبَّةٍ كبيرة، وجدت سِيدْرَا غرفة مجهَّزة لها فاستبشرت خيرا واتَّصلت بي في الحين العاجل وأخذت تأخذ كلّ الزوايا في الغرفة والأفرشة وغيرها، بلهفة، تتكلَّم عنهم وهي في يومها الأوّل... فتنفَّست الصّعداء وقلت:

-ما أجمل أن تحمل العروبة بعضها البعض!

-ما أجمل أن يحتضنك أخوك العربي في ظلّ الأزمة!

-ما أروع نخوة العربي في وقت الشَّدائد!

وبعدما ارتاحت سِيدْرَا من عناء السَّفر أخذت العائلة تعرفها على كنَّاتها وأبنائهم الصغار. تعودت سِيدْرَا في منزلها الاستيقاظ متأخرة، فكانت الكنّة الكبيرة لمى تحضر مائدة الفطور لغرفتها وتغطيها بغطاء وتخرج، وما إن تستيقظ وترفع سِيدْرَا الغطاء عن الفطور حتّى تجد إبريق الشاي الصغير ومعه الجبن والبيض المسلوق والخبز، فتبتسم وترى في نفسها الأميرة شهرزاد التي ستروي لنا قصص ألف يومٍ ويوم. تعوّدت سِيدْرَا العائلة التي تحمل اسم العائلة "جابر"، استطاعت في الأيام الأولى الخروج،

لم يكن الوباء قد انتشر تماما، تروح وتجيء إلى الجامعة إلى أن جاء قرار غلق كل المدارس والجامعات. حدث لسِيدْرَا ما لم تكن تتوقّعه أبدا، لم تستطع إتمام بحوثها، مكثت في البيت، وأكثر ما كان يعجبها إصرار أطفالهم الصغار على البقاء في غرفة سِيدْرَا، فالهرج واللَّعب كله معها، خاصّة الصغير سلطان الذي يأخذ الهاتف من يديها لا من أجل أن يتكلّم وإنّما من أجل أن يقضمه بأسنانه، أمّا الصغيرة حلا فكأنَّها حبَّة حلوى هادئة جدا وناعمة لا تفارق سِيدْرَا أبدا، تتودّد إليها كثيرا.

تعوّدت سِيدْرَا على العائلة، تعوّدت مساعدتهم في جلي الأواني وتدريجيا بدأت تتعلم طبخاتهم الشرقية، فتعلّمت المنسف، وأكثر ما أسرها في تلك العائلة التي تركت بصمتها في قلبي هو أمّهم الكبيرة في السنّ، تصلي آناء اللّيل وأطراف النهار، لا تترك تسبيحا أبدا، لا تؤذيك بكلمة أبدا. كانت تضع يدها الطاهرة على رأس أختي سِيدْرَا وتقول لها:

"أرقيكَ حتّى لا تصيبكَ عين حاسد"، فقد كانت سِيدْرَا جميلة شقراء، وجنتاها كأنّهما الرّمان، وشعرها أملس يتدحرج على كتفيها، ولمَّا اقترب عيد ميلاد سِيدْرَا ظنّت أنّها في غربة عن أهلهَا

لن يتذكّرها أحد، لكنّ العائلة العربيَّة الأردنيَّة الفلسطينيَّة أرادت أن تجعل سِيدْرَا تشعر بالسَّعادة معهم فأقاموا حفلة صغيرة لعيد ميلادها، أحببنا عائلة جابر دون أن نراها، لكنّنا رأينا صورتهم الجميلة في سِيدْرَا، صورة العربي الأصيل، فالأفعال دومًا ترسمُ قدرا جميلاً حتّى لو كان مرّا، فقد كانت تشعر بالراحة معهم إلى أن شعرت أنّها أكثرت عليهم لمَّا طالت مدّة إقامتها مع انتشار الوباء وتوقُّف المجال الجوّي، فلا طائرات تقلّها ولا سفن تعبر البحر.

اتّصلت بالسفير الجزائري وطلبت منه أن تلتحق بالمغتربين الذين جمعوهم في فندق واحد حتّى يقوموا بإجلائهم مع بعضهم البعض، لبّى السفير طلبها وحضر بنفسهِ منزل عائلة جابر وأخذ سِيدْرَا ودموع الوداع ترسم لنا لقاءً جميلا بعد زوال الوباء، فرح السّفير كثيرا بهذه العائلة التي استضافت ابنة بلده في زمن الوباء ووعدهم بمنحهم تأشيرة زيارة الجزائر بعد انتهاء الوباء. وجدت سِيدْرَا نفسها في فندق خمس نجوم، به خدم وكلّ شيء موفّر هناك إلاّ أنّها لم تجد دفء عائلة جابر.

عاشت أيّاما تبكي فرقتهم ثمّ تعوّدت على الفندق الذي مكثت فيه قرابة أربعة أشهر ولا تزال هذه الغربة التي سبّبها الوباء، لأوّل مرّة تصوم شهر رمضان بعيدا عن العائلة، افتقدت الدفء والحنان، فنحن البشر لا نشعر بقيمة الأهل حتّى يبعدنا القدر عنهم أو نفارقهم. قيمة الأشخاص تتجلّى لمّا يبتعدون عن عيوننا فيحنّ لهم القلب وتنادي عليهم الزوايا والأماكن التي مكثوا بها، أمّا الأشياء فلا قيمة لها دون الأشخاص، فالشخص هو الذي يبث الشيء من روحه، أضحكتني يوما لمّا قالت لي: "كل شيء موجود هنا إلاّ الزّلاَبيَّة" فهي تحلية تحضر في شهر رمضان، أظنّ أنّها تفتقد كلّ شيء حلوٍ، بقيت سِيدْرَا تعدّ الأيّام التي تنقضي من عمرها وهي تنتظر كغيرها من المغتربين الإجلاء بفارغ الصبر والعودة للبلد، فمهما احتضنتك البلدان فإنّ لحضن بلدك دفئا خاصا، فحضن البلدان كحضن الإخوة نشعر بحنانهم ولكنّ حضن الأمّ يختلف عن أحضانهم. حالها ليس كحال إلياس ومحمّد عثمان وماميدو فهم تذوقوا ألم الغربة وتعوّدوه، لكنّهم لم يشهدوا وباءً كوباء كورونا كوفيد-19...

وأخيرا تقرّر السلطات إرجاع العالقين بعد غيابٍ دام خمسة أشهر، ترتجُّ العائلة فرحًا بقدوم ابنتها المدلَّلة، يحضرون ليلاً على السّاعة الواحدة، فتنقلهم السّلطات إلى ولاياتهم التي يقطنون بها.

ها قد عادت سيدرا لمنزلها وأهلها بعد غياب سببه كوفيد-19، وما أجمل اللِّقاء بعد الغياب!

عادت سيدرا وبقيتُ أنا على أمل عودة إلياس، لا أجد عزاءً إلاّ في هاتفِي الذي أرى من خلاله صورته وأسمع صوته، ولستُ أنا الوحيد، فالكثير أمثالي في أوطاننا العربيَّة عاشوا ألم البعد والغربة...

ها نحن في زمن الوباء الذي أصبحت فيه أعمالنا صوتية سمعيّة، سنعود لأوّل الخلق إنّه السّمع. أخذت أحادثه في الهاتف صباحا ومساءً، وكنَّا في كلِّ مرة نتجاذب أطراف الحديث حول هذا الحدث الذي روّع العالم بأكمله...

أشرقت علينا الشَّمسُ يوميا فما شعرنا بخيوطها الذّهبية...

أبحرنا في مياه زرقاء صافية فما استرحنا ولا أرحنا...

أكلنا من خيرات التّربة فما شكرنا...

عدت لزوجي أحادثه:

الكلّ كان يعتقد أنّ الوباء مقيَّد وهو يمشي في الشَّوارع، في هذه اللّحظة شعرتُ برجليّ تنملان من المكوث في المنزلِ وتذكرت عندما كنت تتوسليني بعينيك تطوفين عليّ سبع مرات حتّى أقبل وأخرجك لتستنشقي هواء عليلاً.

- آهٍ ليت تلك الأيام تعودُ لنخرج دون خوفٍ ونستنشق الهواء بحريَّة، أصبحتُ أشعر أني أعيش خريطة تشبه المثلَّث: من الغرفة إلى المطبخ إلى الحمام، وحتّى هذه الثلاثية التي أتذمّر منها لا أعرف أين أضع نفسي؟ هناك من نال حظّه داخل الغرفة، وهناك من نال تخمة داخل المطبخ وهناك من نال حظه داخل الحمام، فالأوّل ظفر بكتب يقرأها ونسي أن يقرأ ذاتهُ الضائعة بين الحروف، يُحاول إمساكها بين علامات استفهامٍ هاربة من زمن الفلاسفة، يحاول استيعاب جملة وجدها تتكرّر في كلّ الكتب: العالم تتهاوى قطعه البيضاء والسّوداء...

في هذا الوقت سألتُ ماريا: ما الأشياء التي تستطيعين أنت كأنثى الاستغناء عنها؟

ثمّ ما الأشياء التي تستطيعين أنت كعاملة الاستغناء عنها؟

ثمّ ما الأشياء التي تستطيعين أنت كزوجة الاستغناء عنها؟

ثمّ ما الأشياء التي تستطيعين أنت كبنت الاستغناء عنها؟

أستطيع الاستغناء عن كلّ شيء يعوّض إلاّ فقدان الأحباب يا **إلياس** فهو الوحيد الذي لا يعوِّضه شيء، أعرف أنّ الوباء جعلنا نستغني عن السَّفر وعن وعن... لا أدري لماذا تذكّرني وتسألني، فالذّكريات تنام لتستيقظ في فصل الشِّتاء أمام مدفئة لا تستيقظ إلاَّ بقطع الخشب التي تزيد من وهج النار واشتعالها، تعيد لك الجلوس فوق ذلك الكرسي الهزّاز، ترمي قطع الخشب لتأكلها النّار، وتأكل أنت من حروف الكتاب، وأنت تقرأ تدرك أنّ البشريّة في زمن كورونا قد أدركت وُجُودها وموجودها، تتساءلُ هنا الذّات عن قيمتها، كيف يغدو هذا الجسد الذي عاش مترفًا بين دفات الحرير وظنَّ أنّه لن يحور؟ كيف يغدو هذا

الجسد الذي تتراقص به النِّساء هنا وهناك على أعين شياطين الإنس تكاد بألسنتها التهامه؟

أسئلة بعثرتني بحلول ضيف لا لون له ولا رائحة له، عجبا!

كذلك قال الكيميائيّون عن الماء لا لون له ولا رائحة ولا طعم له، ولكن له سلطان قويٌّ لا تدرك فعله إلاّ أمواج البحار، ولا تدرك عبوره السّحريّ إلاّ بين جلمود وجلمود، يمرّ ويتركَكَ مشدوهًا بلا عقلٍ... هكذا هو الضَّيف الذي حلّ عام 2020، أتى وسيذهب دون شعور منَّا وسيبقى ذكرى..

وقف الأطباء حائرون أمامه، أتراه هدية رأس السنة الجديدة للعالم؟ ألم يخبركم صاحب الرداء الأحمر واللحيّة البيضاء بقدومه؟

نحن أخبرنا حبيبنا وشفيعنا بأنّ الطوارق نازلة في آخر الزّمان.

-ألم يُخبركم أنّ الضيف الجديد أضعفكم وأقواكم؟

-ألم يُخبركم أنّ فوق كلّ ذي علمٍ عليمٍ؟

-ألم يخبركم أنّه جاء ليذكركم بحديث نبيّكم عن النّظافة؟

-ألم يخبركم أنّ فكر العالم توحّد، الكلّ يفكّر فيه، أيعقل هذا؟

كنّا نعتقد أنّنا نفكّر كثيرا فيمن نحبُّهم، لكن هذا الضيف لا أحد يفكّر في استضافته، مع أنّه لا يأخذ مكانا، لا يتجاوز طوله 0,4 و0,5 كربون، فقط يتنفّس برئتي البشر، كيف أمكنه ذلك؟

لم أعد أفكّر في نفسي ولا في سعادتي؛ لأنّه لم يأت هكذا، بل جاء ليستفزّ أرواحنا الضّائعة في بحر الهوى، جاء ليوقظ الضَّمير النَّائم في قلب عنترة وفي قلب عبلة، ليس بهذا القبح، لا تلعنوه، لا تسبّوه، فهذا الفيروس الصّغير جعل أكبر حانات العالم تغلق، فاجأنا هذا الفيروس الصَّغير الذي جاء ليهدينا الشّهادة من يقين، من أين جاء هذا الضّيف؟

لم يأت ليقيم على أعتابنا هلعا، بل جاء ليذكّرنا أنّ الهواء جند وله جنود، عدو دون جسد، دون صورة ودون شكل، عدو لا نراه، جاءنا زائرا من وراءِ البحار وقبل وصوله تساءلنا عمَّا يحدث خلفَ جُدران بيوتنا، أصبحنَا نقبعُ عاكفينَ أمامَ شاشاتِ التِّلفاز، نشاهدُ أرقام الوفيات تعرفُ الصُّعود ولا تعرفُ النُّزول، مكثت النِّساءُ في البيوتِ، فقال الرِّجال: "عدتنَّ لسيرتكنَّ الأولى التي جُبِلتنَّ عليها".

تنطقُ النِّسوة: ألَمْ تُنادوا أنتم بحريَّتنا؟ ألم تنادوا بالمُساواة بيننا وبينكم؟

ها قد حصلتم على ما تريدون وأنتم عاكفون في البيوت معنا، ألسنا معكم في خطٍ واحدٍ أم الزّمن قلبَ معادلتهُ وأصبح الرِّجال القوّامون على النِّساء في البيوتِ؟ ما دعاكم للمكوث معنا في البيوت وهي ليست من عاداتكم؟ قالوا في مراوغة:

شبح مرّ من هُنَا، ترك عطرهُ لنا في غرف العمليات، ترك بصمته لمّا ترك جرحنا ينزف، أتراها لعنة انتقلت من جسد إلى جسد آخر؟ لم نعد نعرف هل نحن نعيش زمن الحاضر أم أننا عدنا للماضي لقوم عادٍ وهود، لطاعون عمواس أم للطاعون الجارف أم طاعون الفتيات والأشراف أم طاعون قتيبة؟ كانت أوبئة فتّاكةً لعلّها تشبه وباء كورونا، لكنَّنا لن نعش زمانها، ماذا فعلنا يا ترى؟ هل خطيئة فاقت خطيئة قوم عاد وثمود؟ هل يعيش الفرعون في زماننا؟ وجاء الوباء لينتقم؟ هل عاد زمن النَّمرود الذي طغى في الأرض وقال: "أنَا ربّكُم الأعْلَى؟"

من قال هذا في زماننا؟ حتّى جاءنا ضيف 2020 يشبه الذّبابة الصَّغيرة الحجم التي دخلت أذن النَّمرود ومكثت فيه أكثر من

خمسمائة سنة، هذا الضّيف الذي أخذ يجوب العالم دون جناح، هلع كبير بين النّاس، شوارع خاوية على عروشها، لعلّ الأرض أرادت أن ترتاح قليلا من وطأة الأقدام عليها يوميا، أمّا يحقّ لها ذلك؟

نظرت من وراء زُجاجِ النَّافذة فرأيت النَّاس يجرّون أكياسا من الطّعام يكدّسونها خوفًا من الجوع أم خوفا من الضَّيفِ 2020 الذي أخذَ يَحصدُ الأرواح ولم يشبع؟ سألت زوجي بإسبانيا: ما بالهم يشترون بلهفةٍ؟ فقال:

-خوفا من الجوع؟ فقلت:

-ما أدراهم بالضّيف الذي لا يطرق الأبوابِ ويأخذ منَّا الأحباب؟ ما بالهم غلَّقوا الأبواب؟ ألم يسمعوا نداءه؟ فهو يصل حتَّى البروج المشيَّدة.

هكذا عشتُ بعيدة عن أختي سِيدْرَا وعن زوجي إلياس، حاولت بشتَّى الطرق أن أتعلَّم الصَّبر في وقت المحن، كنتُ دائمة البحث عن سرّ الوباء الذي طالت مدّته، جعل الكثير يمكثون في منازلهم، يتوقّفون عن الدّراسة مرغمين إلاّ ما كان عبر الأنترنت، شلّ اقتصاد العالم، لكن كانت هناك حركة أخرى وحياة أخرى لعلها السرّ وراء حلول الوباء، حان الوقت لمعرفة السرّ الذي أدركه القليل.

محاكمة شبح كوفيد-19

أفسحُوا لي الطّريقَ، لأجلسَ في الصفِّ الأوّل لأتهمَّ وباء كوفيد-19 بأنّه أبعدني عن زوجي وترك أختي عالقة هناك، وبأنّه ضيَّق علينا الأنفاس و...

كلّ العالم يرفع قضيّته ضدّ الفيروس الصّغير الذي لا يُرى حتّى بالعين المجرّدة، كلّ قوى العالم تحضر للمحاكمة أواخر 2020 وتحضر معها الأدلة والبراهين على أنّ هذا كوفيد-19 قتل الكثير من الأجناس البشريّة، وحطّم الاقتصاد وأسال الحبر...

يُقبل القاضي بجسمه الضّخم، صاحب العينين الثّاقبتين، ذو الأنف بمنخارين واسعين، قطّب حاجبيهِ مدّة ثوانٍ ثمّ دقَّ بمطرقتهِ فارتفعت حواجب الحضور ليعلن عن انطلاق المُرافعة بحضور الظّالم والمظلوم، القاتل والمقتول، الشّيخ والرّضيع، الشّاب والشّابة...

الكلّ في ذُهولٍ لا مثيل له، ينطقُ الرّضيع! يصمتُ الشّيخ، يسأل الموبوء.

يهمسُ المقتول في أذن القاتل: لِمَ نحن مجتمعون في هذه المحكمة؟

-سنحاكم عدوّنا؟

يقفز المقتول فرحًا، وأخيرًا سأحاكمك وأنا في مرقدي وآخذ حقّي منك.

كلاَّ؛ لست أنا عدوّك، بل عدوّنا جميعًا.. ليس لي عدوّ غيرك، أذهب حياتي...

يوشوشُ الجميع، فوضى...

اصمتوا جميعًا، ألم تقم الكِمامة بمهمّتها لمّا وضعتموها على أفواهكم؟ ليتكم أخذتم العبرة منها!

نطق القاضي:

الكلمة لكم أصحاب الدّعوى، ولكن قبل ذلك أذكّركم بأقوال هي مبثوثة في الجرائد والمجلات ومسجّلة في الأجهزة والشَّاشات: "نحن أمام معركة ضدّ وباء خفي".

نطق العالم: سيّدِي الرَّئيس، لم نكن نظنُّ يومًا أنَّنا سنقف في مكانٍ واحدٍ أمام هذا الفيروس الصّغير الذي تجرَّأ علينا وعلى قوّتِنا الاقتِصاديَّة...

وما إن قال هذه الكلمات حتَّى أخذت أنفاسُه تروح وتجيء ببطء كلَّما نظر للفيروس الصّغير ثمّ توقّف عن الكلام؛ لأنّه لم يستطع ذلك فهو أمام أضعف خلقٍ شكلا وأقوى الخلق فتكا، ثمَّ أمر القاضي الفيروس أن يصمت:

قال القاضي: أخافُ إذا تكلّمت تحصد أرواحنا، أفضّل أن تصمت ريثما يتكلَّم الفريقان اللَّذان بينهما مسجد وكنيسة، فليتوقّف الزّمن حتَّى نسترجع أنفاسنا ونستطيع الكلام ونحن نستنشق الهواء بصعوبة بالغةٍ.

فليتقدّم موكّل الدّفاع عن الفيروس...

فنطق وباء كوفيد-19:

لا أحتاج لمحامٍ، فأنا أحضر معي شُهودي: عَاداتكم وتقاليدكم، دينكم ودياناتكم، مساجدكم وكنائسكُم، ظلمكم وعدلكم، أهلكم...

- تفاجأ الجميع وأخذوا ينظرون إلى بعضهم البعض، أكلُّ هذا؟

-بل قولوا هل من مزيد؟

وما إن نطقوا: "هل من مزيد؟" حتّى أغرقتهم البحارُ في مائها، فقالوا: ما لنا ومالها؟

فقالت: أطعمتكم من جوفي، فأغرقتم قاذوراتكم في بطني، كلّ مرّة ألفظها خارجًا وألتمس لكم أعذارًا، لكنّكم تجاوزتم حدودكم... وما هي إلاّ لحظات حتّى سمعوا صوتا مدوّيا، فقال الفيروس: "شششش"...

-هذه أصوات حروبكم، ما بالكم أنكرتم صوت بنادقكم ودبّاباتكم؟ انظروا ما خلّفتم وراءكم.

تدخلُ جثث الحروب بالآلاف والملايين، بعضها أشلاء وبعضها محروق وبعضها أطفال صغار مبتسمو الثّغر نحسبهم شهداء لا ذنب لهم في الحروب ولا قوّة... ثمّ نطق الفيروس: من قتلهم؟

فضاقت الأنفاس وبلغت الحناجر، فصمت الفيروس ليستردّوا أنفاسهم الهاربة منهم، أفواههم مفتوحة متّجهةً نحو السّماء، صدورهم تصّعدُ إلى أعلى وتنخفض...

ثمّ تقدّمت الطّبيعة بأشجارها وغاباتها وقد أمسكوا الأكسجين، فنطق الإنسان: نكاد نختنق

فنطقت الطّبيعة: بل نحن من اختنق بتصرّفاتكم ودخانكم وتجاربكم القاتلة...

أبعد كلّ هذا تلومون الفيروس وتقولون قتلنا وأهلكنا، وأنتم من أحضره ونادى عليه بالجثث وخرق قانون الطّبيعة؟

هل يتوقّف الزّمن؟ هل قد مرّت تسعة شهور ولم يذهب الوباء كما زعموا؟ نطق البشر بسؤال وجّهوه للفيروس: ماذا فعلنا حتّى داهمتنا دون إنذار؟

فضحك الفيروس دون أسنان ليرسم خريطة حزنه على أطفالٍ رضع وشيوخٍ ركّع، وقف الأطفال الصّغار بجانبه وقالوا له: لقد أعدت لنا أمّهاتنا بعدما كُنّا نفتقدهم طوال اليوم، وقال الشُّيوخ: اليوم استفاق الضمير وتذكّر الأبناء أنّ آباءهم في خطر وأنّ دار العجزة لا تليق بنا.

اندهش العالم وهم ينظرون أحبابهم يشهدون مع الفيروس، نظروا مرّة أخرى وإذا بهم ينظرون للطبيعة تستعيد اخضرارها

وللبحر يستعيد حيتانه بعد دخول البشر كهفهم، لقد كانت الطَّبيعة تعاني مخاض ولادة سببها دخان سياراتكم ومصانعكم، لقد عادت الحيتان لمواطنها،لم يعد العالم كما كان من قبل، سئم الكون من صَوتِنا، من صُورتنا، الأرض تناجي الصّمت، الهدوء، كم أزعجنا الطَّبيعة بتصرّفاتنا غير المسؤولة؟ كم عبثنا بالوقت؟لم يعد بإمكان الهواء تحمّلنا، لم يعد بإمكان النّهار أن يبصرنا، لعلَّ السّماء أرادتنا أن نبصر أنفسنا في مرآة الخلوة بالذّات ومحاسبتها.

وُضعت المستندات على طاولة الحكمِ، الكلُّ يتهجّم على الضَّيفِ الجديد، الكلُّ يطلبُ إعدامهُ، الكلُّ يتنافسُ للحصول على الجائزة، فينطق الضَّيف وهو المحكوم عليه بالإعدامِ:

-هل أنتم مستعدُّون لرؤيتي بآلافِ الأوجهِ وبآلافِ الأصواتِ وبآلاف الحناجر؟ بوجهِ النَّبات يشكوكم دمارهُ وبوجه الحيوان يشكوكم تعذيبهُ وسلقهُ حيًّا وبوجهِ الماء يشكوكم اتّساخهُ وبوجه الهواءِ يشكوكم تلويثهُ... أم أنَّكم غير قادرين؟

-هل تملكون آذانًا مصغية؟ أم أنّكُم سَتجعلُونَ أصابعكُم في آذانكُم حذرَ الحقيقة؟ كأنَّكُم تَسْمَعُونَ أصوات الأبواق تزعزع صمَّام آذانِكُم، أليس كذلك؟

-هل تملكُون القوَّة والبَسالة لمُشاهدة شُهُودي وهم يتقيَّؤون.... وهم... وهم...

لعلّنا بحاجة للبقرة الصَّفراء الفاقع لونها، فنضرب بجزء منها على جثث موتى الوباء فينطقون كما نطق الرّجل وأخبر عن قاتله وهو من أهله، لكن أين نجد مثل هذه البقرة؟

-هل تملكون الصَّبر لرُؤية أسباب مَجيئي؟ فأنا لا أزوركم إلاّ إذا تخلخل نظام الكون واشتكى ناموس الطَّبيعة من أفعالكم، حتّى الرّضيع في الرّحم يشتكي منكم...

-هل أحضرتم مناديل الورق لتجفِّفُوا دموع البرايا؟ لا أعتقد أنَّ المناديل تكفي فقد تركتمُوها لقصص الحبِّ، أظنّكم تحتاجُون لمَجاذيف لأنّكُم ستغرقُون في مياه دموعهم التي لم تجف حتَّى الآن، ستصبح دموعهم طوفان نوح يغرق فيها المجرمون.

تفاجأ العالم ممّا يحدث في قاعة المحاكمة وقد انقلب السِّحر على السّاحر، نطق القاضي حينها وقال: لقد بدأ السرّوراء حلول الوباء ينجلي، لقد حضر الوباء ليعلِّم البشرية أشياء وأمورا كانت تبدو مستحيلة لكنّها عكس ذلك، انشغل العالم بالوباء وتوقّفت الحروب التي كانت تدمي القلوب وتعصر الأفئدة. جاءت كورونا وعلَّمتنا أنّ العالم لا يساوي جناح بعوضة فلماذا نضخِّم بعض الأمور في بعض الأحيان. جاءت وعلَّمتنا أنّ المشي على الأرجل في شارع قريتنا هو رحلة عبر العالم، علّمتنا أنّ أقوى الأعداء قد يكون في شيء لا تبصره بعينك المجرّدة، علّمتنا أن نختلي بأنفسنا حتى نرتّب أفكارنا المبعثرة منذ سنين، علّمتنا أن الطبيعة تحتاج لسكون البشر لتتمتّع هي بصوتها الحقيقي الذي يسبح الله كلّ حين، علَّمتنا كورونا أنّ كلّ البشر متساوون لا فرق بينهم، علمتنا كورونا أنّ كل هذا العلم الذي وصلت إليه البشرية نزر وما جاءنا قدر.

يصمت القاضي قليلاً لأنّ العالم لا يزال ينتفض، تفنّد ماريا لزوجها إلياس ما قاله القاضي:

-حين تختنق الطَّبيعة من تصرّفات الإنسان الجاهل يحضر الوباء، وحينما تستنزف ثرواتها الباطنيَّة يحضر الوباء، وحينما تُذرف دموع الأطفال في الحروب، وحينما ينتصر للمظلوم ويُقهر الظالم، يحضر الوباء كإنذار ليُخبر خليفة الأرض أنَّ ميزان الطّبيعة يختلُّ بفعله هو وقوله.

ونحن على هذا الحال حتّى نادى القاضي:

تقدَّموا أيُّها الشُّهود على مهلٍ منكم، لم تمرّ إلاّ ثوانٍ حتّى أخذت الشُّهود تدخل بعدد الوفيات وبعدد الجثث التي تودّ أن تقوم من مرقدهَا، بعدد الأرواح الصّاعدة إلى السَّماء، اكتظَّت القاعة وتوقَّفَت الأنفاس وبلغت الحناجر لهولِ مَا رأوا، بَحثُوا عن الضّيف الجديد فلم يجدوا له أثرا، وتساءلوا: نحاكم من؟

نقاضي من؟ فاحتدمَ الصِّراع بينَ الرُّوح والجسد، تعلُو الرّوح للسَّماء السَّابعة ويبقى الجسد بالأرض يناشد خطيئتهُ الأولى والثانية والثّالثة، فقد كان في سمائه وفي عليائِه حتّى وسوس له شيطانه وأذاقه من تفاحة آدم، فوسوس له حتّى في أرضهِ بتفاحة آدم-19. ستسمُو الرُّوح الطَّاهرة الصّاعدة إلى بارئها الذي نفخها أوَّل مرَّة، ويبقى الجسد في مكان الخطيئة يحاور التُّراب

أصله ومبدأه، فيحتدم الصّراع للمرّة الثّانيّة بين النّار والتّراب وتزدحم الأفكار هنا وهناك بين الضّفتين، يُحرق البعض ويُدفن البعض، والوحيدة التي تستلُّ من بينهما هي الرُّوح، كذلك انسلَّ الفيروس من بينهم وهم منشغلون بمن ينقذُ البشريَّة؟ وظهرَ مالم يكن في الحسبان، وقبل أن ينطق القاضي بالحكم شهد شاهد من أهله:

لقد ظهر الوجهُ المُشرق لهذا الفَيروس وهو كَوكب الأرضُ مُرافعا تاركًا جملته الشَّهيرة «لكلّ مخلوقٍ وجهانِ وأنتم نظرتم للوجه الأسود ولم تبصروا وجههُ المشرق».

نظر النّاس والعالم هنا وهناك فلم يجدوا غير ضمائرهم يؤنّبونها، ذهب الوباء وبقيت تفاحة آدم في حلق الرّجال والنّساء، وفي هذه اللّحظة ترفع **ماريا** يدها وتسأل القاضي: متّى تعود المياه لمجاريها ويعود زوجي لعمله وألتحق أنا به؟ متّى نزور أحبابنا ونعانقهم بذراعينا؟ متّى نمشي في شوارعنا التي باتت خالية؟

قال القاضي:

لمّا تعود تفاحة آدم لمكانها ويتطهّرُ الإنسان من أفعالهِ تعود المياه لمجاريها، وتعود الطّبيعة لطبيعتها تهبنا الأكسجين. في ذلك الوقت لن نحتاج لجهاز تنفّس اصطناعي، نتصارعُ عليه في مستشفياتنا، ونهبه للشباب الأصغر سنّا وننزعه من العجائز كما فعلت إسبانيا، لمّا اكتظّت مستشفياتها ولم تجد الحلّ. أليس من حقِّ ذلك العجوز أن يعيش مثلما يعيش الشَّاب؟ لماذا تبكي زوجته الإسبانيّة بكاءً شديدا على مرأى العالم وتشتكي أنّهم نزعوا جهاز التنفّس من أنف زوجها العجوز ووضعوه لشاب في مقتبل العمر؟ سيذهبُ كوفيد-19 لمّا نحبّ لبعضنا ما نحبُّه لأنفسنا، لمّا يخرس صوت الدّبابات إلى الأبد، فقط في هذا الوقت تتوقّف الأوبئة عن العودة للبشر.

يرفع أحدهم يده ويتكلّم: أين الفيروس؟ أين اختفى؟ نحاكم من؟ قال القاضي:

رُفعت الجلسة المتّهم غير موجود! كيف نحاكم من لا نراه بأعيننا ولا ندركه بأبصارنا ولا بأسماعنا.

سنعلنُ الحكم غيابيًّا على وباء كوفيد-19 وحضوريًّا على العالم الموبوء...

حُكم على الوباء بالبراءة فلا ذنب له، لم يأتِ وحدهُ، فهو جند من جنود الله، وحُكم على العالم بالأوبةِ والرُّجوع إلى من أوجدَهُ وسبّب له وجوده، وقدِّرت له غرامة ماليَّة لتكفِّر عن ذنوبه ومعاصيه قدرها بقدر ما فعل؛ فقد أحباب ودموع نغسل بها خطايانا...

نطق الجميع: هذا ظلم، نحن نطعنُ في هذا الحكم، لقد قتل الوباء آلاف الأطفال وآلاف النّساء وآلاف الرّجال، ترك جروحنا تنزفُ، لم نودّعُ حتّى أحبابنا، لم نقِم لهم جنائز تليق بهم وبمقامهم، لم نتمكّن من عناقهم وتوديعهم، لم نسمع وصيّتهم الأخيرة...

نطق القاضي:
توقّفوا لبرهة وأجيبوا عن أسئلتي:
تقولون إنّ وباء كوفيد-19 قتل الآلاف أو بالأحرى الملايين من البشر!
-ماذا عن الحروب؟ ألم تأتِ على الأخضر واليابس؟

-من سببها؟ قالوا جميعًا:

-الإنسان!

-البحار من لوَّثها؟ قالوا جميعًا:

-الإنسان!

- طبقة الأوزون من ثقبها؟ قالوا جميعًا:

-الإنسان!

-من سبَّب الاحتباس الحراري؟ قالوا جميعًا:

- الإنسان!

- الحيوانات من قتلها حتّى ولّدت الفيروسات؟ قالوا جميعًا:

-الإنسان!

خرج الجميع وهم يردّدون: وهل عدوّ الإنسان إلاّ الإنسان؟

خيرة بوخاري

سيدي بلعباس

يونيو 2021

تفاحة آدم 19

سنحضر جميعنا لمحاكمة تاريخيّة بطلها كوفيد19-، وشهودها من بني البشر: من الرّضيع إلى الشّاب إلى الشّيخ الذي ناهز قرنا من الزّمن، فكن جاهزًا أيّها القارئ لأنّك أنت من سيعلنُ الحكمَ على ضيفِ 2020 وتعلن البراءة لـ... فكلّنا أكل من تفاحة آدم التي لا تزال عالقة أجزاؤها بحنجرة رجالنا، فكثيرنا لا يزالُ عالقًا خارج دياره، فاحكم بزمن 2020م وبمشاعر الفقد والعزاء للأحباب وبشهود الجثّث وبإعلان حربٍ ضدّ جرثومةٍ لم نرَ لها من قبلُ سمّيًا، حربٌ بلا سلاح ودون عتادٍ، حرب فيها واحد خاسر والآخر رابح؛ لأنّ العدوّ المخفي قد يكون صديقا يحمل في ردائهِ آلاف رسائل الحبّ، والصّديق قد يكون عدوًّا يحمل في جنباته كلّ رسائل الحقد...

خيرة بوخاري

ISBN 978-9931-748-64-9

9 789931 748649

دار الباحث للطباعة والنشر والتوزيع
حي 50 مسكن تساهمي، عمارة 06، رقم 88-87
العناصر - برج بوعريريج - 34030
الجزائر

https://www.facebook.com/elbahith
darelbahith@gmail.com
(+213) 0674 907 776